
رواية
عيُّوش
سامي عيساوي


عيُوش



رواية

سامي عيساوي

2014

الطبعة الأولى

آذار \ مارس – 2014

نابلس – فلسطين – 0097092347176

–إهـــــــداء–

الى الشهداء جميعاً أينما كانوا ..

الى "عيّوش" التي أعلم بوجودها دون أن أُقابلها.

إلى "جميلة " الجميلة حقاً ...

عندما شاهدت فراغ قدميها بكيت.

بداية

لأيام عشرة. وقفت عاجزاً، صامتاً، باكياً أحياناً، خرجت في مظاهرة احتجاج، سهرت حتى الصباح محملقاً في الشاشة، باحثاً عن بصيص أمل.

دون أن أفلحَ في التخلّص من العجز.

فجأة انبثقت الفكرة في رأسي، وبدأت أولى الخيوط بالظهور، تناقشت بعض الأفكار مع زوجتى، وكانت هي من اقترح أسم "عائشة".

واصلت الليل بالنهار، أترقب الأحداث لحظة بلحظة؛ نسجت عالماً افتراضياً محفوفاً بالخطر، الخوف وربما اقتراب الأجل.

أكتب يوميات "عيوش" يوماً بيوم، وقد ذهلت للمشاعر التي أحملها ويحملها من يشاركوننا بشريتنا من "سدني" الى "سانتياغو" اتجاه أهل غزّة وفلسطين وكل أصحاب الحقوق المغتصبة على وجه الكوكب الأزرق.

المؤلف

" .. قُراؤنا في غير حاجة الى أن نَظَّل نروي لهم مأساة الإضطهاد والظلم؛ فهم يعرفون تفاصيلها غيباً...
ما ينتظرونه من الرواية هو أن تكشف لهم جديداً ".

غابريل غارسيا ماركيز

(الفصل الأول)

1 *

_ "أصبحَ بلا ولدٍ ولا تلد".

قالها أحدُهم وسَمعتُها، فذكرتني بالنار التي أكلت كبد أمي ومن قبلها قلب والدي صحراوي التقاسيم.

أن تكتب عن حزنك وقهرك يعني أن تعيد إنتاجه مرة بعد مرة في سادية قدرية، وهذا ما لا أحتاجه وما لا أريده من وراء الكتابة.

ربما هو الوفاء لمن رحلوا ..

أو هو الخوف من لعنة الفناء.

فالفناء غير الموت؛ الموت حق نمارسه كرهاً أو طوعاً دون أن يكون لنا يد فيه، أما الفناء فهو صنيعنا نحن، نختاره بإرادتنا أو ينتجه تراكم أفعالنا.

الفناء وحش كاسر فاغر فمه ومسام جلده يطاردني في الأزقة وبين الساعات، وحش يترصد خطوات محدثكم "فتحي عبد المعطي رزق عوينات" [2]** لابتلاعه وابتلاع والده ووالدته وزوجته الإسكندرانية وابنته الوحيدة، حيث أصبحتُ كما ذكر أحدهم همساً دون أن نذكر أســـماء بعض من خلقهم الله لرش الملح على الجراح، عندما قال: " أصبحَ بلا ولد ولا تلد"

---

[1] * يمكن للقارىء المتعجل أن يتجاوز هذا الفصل، فهو إنشاء ممل مقارنة بما كتبته "عيوش" في دفترها.

[2] ** أي تشابه في الأسماء هو بالضرورة محض صدفة عابرة.

لتعيدني تلك العبارة الى هاجس قديم قديم، كان يأكل أمي من أعماقها، ومن قبل أكل كبد والدي البدوي الذي يحمل في قلبه وفوق كتفيه أعباء الصحراء وقسوة تقاليدها، عادات رجالها ومشاعر أبنائها وقسوة قلوبهم المنقوشة من برد ليلها وطوله.

الحزن في تجربة الموت حالة، لكنه بالنسبة لي موقف من مسائل الوجود الكبرى، التي داعبت خيالات كل من تنشق هواء الله في الأرض، وفيما بعد سلَّم أو استسلم لشكوكه.
بالنسبة لي، لقد أصبح الحزن وانتاجه من يوميات الحياة.

هي بالمناسبة روايتي الأولى؛ دون أن يكون لي طموح لامع في عالم الكتابة، فعمري الذي شارف أو كاد على الستين وقلبي المعطوب؛ كليهما لا يبرقان بأمل كبير حتى في أن أكمل هذه الرواية أو القصة أو أية شيء يمكن أن يسميه جمهور القراء أو النقاد.

فهي ربما تفتقر الى المواصفات الفنية في الحبكة وبناء الشخصيات وفي لغتها السردية، فضلاً عن نهايتها غير المشوقة. لكنني سأستجمع ما استطعت من المهارات التي اكتسبتها طوال السنوات التي عبرت مني، لا أفعل شيئاً في أوقاتي الفارغة سوى القراءة في شتى الموضوعات، علّني أجد إجاباتٍ لما طاف عقلي من أسئلة لا أجوبة لها؛ عن الله والوطن، عن الحب والفراق، عن الحياة عن الموت وعن الولادة.

ليس من باب الحسرة على غابر الأيام التي عبرت مني أقول: كان يمكن لي أن أكون كاتباً خجولاً، شاعراً متعثراً أو حتى تشكيلياً تؤرّقه الألوان، لكن والدي ابن الصحراء الوفي لتقاليدها، الباقي متمترساً في خيمته رغم لجوئه، حال دون ذلك، فعلها هو مرة واستراح، وبقيت بعدها اجتر حسرتها كل مرة.

أحلام الطفولة والصبا، الشباب الذي اندثر على أعتاب الرجولة، وما تلاها من مراحل يمكن ملىء حشواتها بمشاهد الحرب والهجرة ووعثاء السفر، فيما البقية الباقية مني تعتاش على ذكرى من لاكتهم الحرب الأخيرة أو التي سبقتها، أو تلك التي لا محالة آتية.

قرأت في حياتي الكثير من الكتب عن اتقاد شعلة الأمل، عن التفكير الإيجابي والتفكير الأمثل، عن أسرار السعادة، عن المهارات اللاّزمة لإدارة الأزمات وأشياء كثيرة نسيتها أو أصبحت كلاماً إنشائياً نقوله للعامة، نستعرض عضلات فهمنا أمامهم على حساب الدم الذي يقطر من جراحهم، لكنّها لن تجدي نفعاً معي هذه المرة.

أن أجد زوجة، عذراء، مطلقة، ماجنة، قديسة، أو أيّ من تكون فأعايشها معايشة الأزواج، أحبها وتحبني، أقاسمها الفراش، أتحمّل رواحها وقدومها وتقلبات مزاجها، كي تملأ الفراغ الكبير الذي خلفه الغياب، انثى تملأ البيت بصوتها ورائحة عطرها وربما بالأولاد، أمر لن أقع في براثن إغرائه،

فعمري الخمسيني الذي يزحف مسرعاً نحو الستين، وقلبي المعطوب، وخسراني، وحسرات قلبي المتراكمة عبر تاريخي، جميعها منفردة أو مجتمعة، لا تعينني على الإقدام مرة أخرى على انتحار أختاره بملىء إرادتي.

سيقول قائل، اليأس من الشيطان، والحياة مسيرة متواصلة لا تنتهي بانتهاء أحد، يعظني آخر أين ايمانك؟ أين نصائحك وتعليماتك التي لم تبخل بها على أحد من معارفك وزملائك؟

أقول: كلُّها لا تلزمني، ولن أقع في إغوائها، فهي لن تخترق القشرة السميكة من الوجع والفقدان الذي عشته وأعيشه. ولأدعكم تكملون روايتي، فلنترك إصدار الأحكام حتى النهاية.

فعندما يكون المرء بلا ذاكرة كـــ"عيوش" أو من هم في مثل سنّها، تفاجؤهم الحرب، تثيرهم، يستلهمون من نارها ودمها شعراً يخترق رتابة أوقاتهم، تشقيهم، تنضجهم قبل أوانهم، وأحياناً تسلب سنوات كثيرة باقية من حياتهم.

لكن الحرب للجيل الذي حمل أوزارها من أمثالنا ممن عاشوا الفصول كلها، فقد شاهدوها بصورها كلها، شاهدوا كيف توقد النار، من يذكيها ومن يطفئها، وعرفوا كيف تلهبها الكلمات، وكيف يغذّيها غباء الإنسان.

في الحرب؛ عند اشتداد المعارك، عند التحام لحم الجنود بلحم الأرض، عندما تولد النار من بطن الحديد والبارود، ويمتزج لحم البشر بأديم الأرض تنشب أسئلة وجودية بلا عدد، تبقى معلقة في السماء ولا مجيب.

أسئلة لا تتسع لها رؤوس البشر، عن الله، عن الحب، عن الوطن، عن الغربة والشهادة، عن كروية الأرض، عن الألوان، عن الليل والنهار، وعن الجنة والنار.

وأسئلة أخرى صغيرة، عن الوجبة القادمة، عن الرعب الذي يخلفه اختفاء النهار، عن النوم والصبر، عن "فتح" وعن "حماس" عن الثلاثمئة وخمسة وستين فصيلاً المنتشرة على جسد الوطن، وليس آخراً عن شعب الله المختار، ولماذ يختار الله شعباً عن باقي خلقه من بني الأصفر والمجوس والهندوس والزنوج، أو حتى هنود أمريكا.

في الحرب، يتطاول سؤال الوجود ليصل عنان السماء، يتلوه سؤال الحياة والموت، والعدل، والظلم، ووجهات النظر المتفاوتة بتفاوت المصالح المتعارضة، ويعشق الإنسان أن يقع على تطمينات، تزيل عن قلبه يقين العبثية.

"عيوش" مثلي تماماً أو أنا مثلها والملايين ممن يشاركوننا انسانيتنا، نمتلىء عن آخرنا بالأسئلة؛ أسئلة صعبة، صغيرة، ساذجة، زئبيقة، متجددة، تراوح مكانها ولا مجيب.

يا أصدقائي، يا من تشاركوننا أنسانيتنا المحكومة بعذاباتها وشوقها، واسئلتها المسكوت عنها، ما أحسه يدب في قلبي ويسري في دمي كجيش من النمل الكريه، ليس يأساً، أو نقصاناً في مادة الأمل، هو بالضرورة زحف النهاية، هو ربما دبيب الموت الذي أصاب هذا البيت حتى أصغر أركانه.

ما أنا بحاجته ليس الأمل، ولا حتى الإيمان، بل العمر هو كل ما أحتاجه كي أكمل هذا الكتاب، كي أقاوم الفناء الذي يزحف الى كياني، وليكن بعده الطوفان.

الوجه الآخر لي هو "عيوش" التي أصبحت ذكرى قديمة تتجول بحرية وهلامية على شكل صور ساكنة صامته أحياناً، وناطقة أحياناً أخرى.

هل تصدقون،"عيوّش" أصبحت تتجول في الطبقات السفلى للذاكرة، تزيد من عطب قلبي وتقلل حتماً من الدقات الإفتراضية الباقية كي يقف الوجيب اللعين، وأستحيل كمن سبقني في الموت الى جثة ترسل الرعب في الحدقات، وتحيلها الحرارة والرطوبة الى جيفة منتنة.

"عيّوش" الطيف السماوي، هبة الله، إعجازه في الخلق، الصوت والصورة، الحضور والرائحة، ضحكة الحياة على أهلها.

كلها أصبحت من الماضي.

روايتي كما قلت لكم هي وفاء لصاحبة الوفاء "عيّوش" التي أمضت ثلاثة أسابيع من الرعب والخوف والغضب المقطر دون أن تثير في البيت زوبعة أو إرباك، وظهر فيما بعد في دفترها الذي كتبت فيه كما تعوَّدت مذكراتها أو هواجس قلبها الصغير، كي تتقوى بالكلمات على الصمت والخوف والموت والظلمة.

"عيوش" التي أكملت ربيعها السادس عشر، ولم تتمكن من الإحتفال بميلادها لأول مرة بسبب الحرب؛ "عيوش" التي لم يُكتب في ميزانها الرَّباني حتى سيئة واحدة، هي عنوان هذا الكتاب، وهي سطره الأول وكلمته الأخيرة.

"عيوش" التي استطاب للعدو أن ينتزع خمسين عاماً إضافية أو يزيد كان يمكن لها أن تحياها، تختبر فيها الحياة والناس. تسافر، تصادق، تتعلم، تتزوج وتنجب، تتعلم مكر النساء وتطرب لكلمة "ماما" الذي تختصر أبجدية الوجود.

لقد سلبت الحرب سنوات عمر كان يمكن لعيوش أن تحياه هي وغيرها، لو نحصيها تراكماً لتجاوزت الثلاثة آلاف سنة ونيفاً التي ما فتىء مؤرخو التوراة في ترديدها قصداً أو عَرضاً علينا. لكن "عيوش" التي ولدت على هذه الأرض بطفولتها، بشغفها بحبها للحياة ومسراتها، لا يعنيها هذا الماضي التليد بقدر ما تعنيها اللحظات القادمة التي ستتلو انتهاء الحرب والسنوات التي ستأتي باحثة فيما بينها عن مستقبل تزهو به كباقي البشر على هذه الأرض، أو في انتظار الأيام القليلة الباقية لإنهاء العام

الدراسي والذهاب بعدها الى البحر للاستحمام في كون الله وفي حضن شمسه وتحت سمائه.

هدأت الحرب أو كادت، وها هو يمر على صمتها المريب ثلاثة أشهر ولماّ تزل أصوات وخطرات "عيوش" في البيت لا تهدأ، أصواتها في المناسبات كلها، حركات يديها، أحداثها الصغيرة ، عنايتها بأشيائها، مقتنياتها المتناثرة التي لم تُمس منذ لحظة الرعب التي غمرت المنزل بأهله ومتاعه.

وفوق كل هذا وقبله، هذا الدفتر الذي تركته الى جوارها شاهداً عليها وعلى رعبها وخوفها ويأسها، الذي يصعب على قلب بصغر روحها أن تتحتمله.

(الفصل الثاني)

كتبت عيوش في دفتها.

(اليوم الأول)

السبت 27 كانون أول \ ديسمبر 2008

الساعة الثانية والنصف ظهراً ..

يحد غزَّة من الشرق الحرب.

ومن الغرب يحدها بحر ظالم.

من الشَّمال الجُنون.

ومن الجنوب يحدها، هرم خوفو الأكبر.

السؤال: ماذا يحدّ المعتدي من الأعلى؟

الساعة الثامنة والنصف مساءً

لا تستطيع عيوني تصديق ما يحدث.

تتكوَّم أمي على نفسها كَقِدرٍ يغلي، تُحدِّق بطرف عيونها الواسعة في شاشة التلفاز، تضم شفتيها كعادتها عندما لا يروق لها أمر ما، لتمنع نفسها من قول ما لا تود قوله. تضمُّني أحياناً، ولا أدري إذا كانت تطمئنني أو تطمئن خوفها.

يتحاشى والدي النظر مباشرة في وجهينا، وإن كنتُ أشاهده يختلس النظر باتجاه أمي بأطراف عيونه في لحظات شرود الذهن العابرة.

أفواه كثيرة تُشرع وتُغلق على أصحابها من شاشة التلفاز، دون أن نسمع من انفعالات أصحابها شيئاً، كانت وحدها الصور المصبوغة باللون الأحمر، تقول بصمت ما لا تستطيعه الكلمات.

الموت والدم والخراب في كل المكان.

رجال أمن تتكدس جثثهم، نسوة تصرخ، أطفال يبكون، شبان في عمر الرياحين يهيمون على قلوبهم، مسنون تعاودهم دهشة قديمة، بيوت مهدمة، وحارات مرتبكة بساكنيها.

رائحة الدخان والبارود، يسوقها الهواء عبر نافذة الصالة المشرعة، ليكتمل المشهد الذي تنقله شاشات التلفزة.

نجلس ثلاثتنا، في ركن قصي من الصاله، دون كلام، فيما الهاتف الأرضي والهاتف الخليوي لكل من أمي وأبي لا تنفك عن الرنين، ترد أمي في أكثر الحالات، تقول كلاماً مقتضباً، كلمة أو أثنتين، تعود بعدها لتقفل على نفسها باب من الصمت أسود.

عاد جو الوجوم بين أمي وأبي يسيطر على هواء البيت، كأن العدوان قد نكأ جرحاً قديماً يشترك كلاهما في دمه وألمه وتركه دون علاج.

تنطوي أمي على نفسها في جلستها الأثيرة في أوقات الأزمات، تحتضن ساقيها براحتيها، وتسند رأسها على ركبتها تحدق في أرض الغرفة، أو في شيء لا يراه غيرها في الجدار.

يستشعر أبي بشفافيته العالية مواطن وجومها فيهرب كعادته الى الشرفة، يكثر من التدخين والتحديق في الأفق المجهول باتجاه البحر، لا يتبادلان الكلام ولا الصباحات، لا تتلاقى عيونهم البتة، ويجهد كل منهما في إخفاء مشاعره أمامي، أحس وأفهم بكل ما يدور دون معرفة بالتفاصيل.

السؤال: هل يبكي الرجال؟

(اليوم الثاني)
الأحد 28 كانون أول \ ديسمبر – 2008

<u>الساعة التاسعة صباحاً ..</u>

صباح أسود، غير صباحات غزَّة الحبيبة.

يقف والدي في الشرفة المُطِّلة مباشرة على الشارع العام مقابلاً لبحر غزَّة، منتصباً كعادته يقف دون أن يجلس، يدخن بشراهة ويرتشف قهوته المرة.

أشاهده من فراشي الجديد في الصالة في حالة عصبية وهو يحدق في البحر كأنه يتحداه، يتحدى فتوته ورجولته ونخوته، يتحداه في شَرفه وبكارته، يتحداه في مقدرته على البقاء طوال هذه السنين صامداً صموده الخرافي، أن يفعل شيئاً لــ "غزَّته" الأثيرة، ولمن بقي من أهلها. فيما بقيت أمي تغط في نومها على غير عادتها في مثل هذه الساعة المتأخرة.

كان من المفروض أن يكون بيتنا خالياً منا في مثل هذه الساعة، أنا في المدرسة، والدي في عمله، وأمي تُدَّرس التلاميذ دروساً في الموسيقى.

كانت ما تزال حقيبتي المدرسية الى جواري، حيث بقيت حتى ساعة متأخرة من ليل أمس أطالع كتاب التربية الوطنية حيث كان من المفترض أن يكون الإمتحان النهائي لمادة التربية

الوطنية هذا اليوم، وشعور غامض أن اليوم التالي ربما سيكون يوماً عادياً، سنذهب فيه لنتلو نشيد الصباح ونجلس للامتحان وكأن شيئاً لم يكن.

تناولت الكتاب أتصفح الدروس.

الدرس الأول

قصة طائر الفينيق ...

"هي أسطورة كنعانية تدور حول طائر أُسطوري هاجر خارج الوطن باحثاً عن لقمة العيش، عاش في الغربة مشتتاً، مهجراً، وبعد حين غالبه الحنين للوطن، تضطرم دماؤه شوقاً اليه، ينبض قلبه الدافيء بالحب اليه، تتفتح نفسه الظامئة الى مائه وهوائه وترابه، يسعى دون كلل أو ملل أو استسلام للعودة الى الأرض التي نشأ فيها، فانطلق كالطود، ثابتاً لا تزعزعه صعوبات الطريق، ولا تفقده أمله، حتى حطَّ رحاله على أرضه، يثبت أقدامه على قمم جبالها، ويقيم عشه على أغصان أشجارها، يربي صغاره، ويلتم الجمع وتكون فرحة التلاقي في ظل الحرية والإستقلال."

القصة رمزية تتناسب مع واقع الحال لكنني لم أتمكن من مواصلة القراءة على وقع الأصوات الكريهة لطيور الحديد. التي

تغيب، وما تفتأ لتعود تحمل في جوفها الموت والخوف وغيبة الأمل.

السؤال:

الى أي مدى تنطبق قصة طائر "الفينيق" على الشعب الفلسطيني في الشتات الذي يعيش؟

الساعة الثانية ظهراً ..

كلما اشتد هدير الموت القادم لا من البحر، ولكن من الجو نلتصق ثلاثتنا، أنا وأبي وأمي في زاوية واحدة تقريباً. توقف والدي طويلاً عند تقديرها كأكثر الأمكنة أمناً في الشقة، نجلس فيها، نتناول الطعام، ننام ونشاهد التلفاز، بعد أن قمنا بتغيير جذري لجغرافية المكان.

الصالة الكبيرة محاطة تقريباً بالجدران من كل جانب، الجيران من جهة الشرق، الباب والدرج من جهة الشمال، فيما أحاطت جدران الغرف الثلاث والمطبخ باقي الإتجاهات، وبقينا نظُّن أن البحر يحرسنا من الغرب.

نجلس ثلاثتنا، معلقة أبصارنا في شاشة التلفاز، وهي تبث صور الموت والدمار الذي لف المكان وأهله.

يطرق أبي، يلطم كف بكف، يدخن، ويشاهد الصور، في المقابل تساهم عصبيته تصاعدياُ في نمو ارتباكنا وخوفنا.

بسرعة البرق، تكيف كلٌ منا مع الواقع الجديد، حل الصمت مكان النكات والتعليقات وأخبار اليوم التي نتبادلها، تَجْمعنا شاشة التلفاز والخوف، طوّر أبي عادة جديدة قديمة في التحديق في شاشة التلفاز والبحر المقابل، أمي عادت الى عادة النوم في وقت الأزمات، تنام وتصحو لتنام، لم تعد تهتم بتبديل ملابسها أو تأطير شفتيها الرقيقتين بألوان للفرح، ما عادت تنفق الساعات في لف شعرها قبل النوم ليكون جاهزاً لحياة جديدة في الصباح.

واستحال البيت الى لوحة سوداء تشي بالخطر.

هذه ليست المرة الأولى التي تمارس فيه أمي عاداتها السلبية هذه، تكررها في الأزمات الخاصة والعامة، تعترف بلسانها أن الأمر ليس بيدها، فيما بعد تعتذر دون أن تبذل جهداً في تبديل تلك العادات.

أعجب من موقف والدي منها، حيث يقف مكتوف اليدين دون حزنها وسوداويتها المتكررة. ذات مرة طلبت منه أن يصنع شيئاَ، قال لي:

ـ"يجب أن نتحملها، هي تحتاج الى بعض الوقت، لكنها في منتهى الطيبة، والروعة". وهي كذلك .

ذات مرة قال كأنه يحدث نفسه:

–" يصعب على "إسكندرانية" تُعلِّم الموسيقى أن تعيش في هذا الجو.

كان كمن يلتمس لها عذراً.

أما أنا فقد أصبح لدي متسع من الوقت لأُمارس هوايتي الأثيرة في القراءة وكتابة ملاحظاتي اليومية، كنوع من التفريغ النفسي، وفي نفس الوقت، إنفاق ساعات النهار الطويلة المحفوفة دقائقها بالخوف والمجهول.

السؤال:

هل الرجل والمرأة كائنان مختلفان؟

<u>الساعة السادسة مساءً ..</u>

بدأ الناس يتحدثون عن حرب ستطول، وكلما طالت الساعات، زاد اضطراب والدي وارتباك أمي، ماذا يتوجب عليّ فعله، بنت صغيرة مثلي ماذا بوسعها أن تفعل في هذا البحر

المتلاطم من الأخبار، الإشاعات، الصراخ، الخوف، ترقب الموت، والصور القادمة عبر الشاشة.

ربما أكون محظوظه بإهتمامي في القراءة والكتابة، غير ذلك كنت سأموت من الضجر والإنتظار والخوف.

هل أنا خائفة؟

لا أدري، ما يخيفني أكثر ارتباك أمي وحيرتها، اضطراب والدي وعصبيته الزائدة. لكن وجودي بينهما خاصة والدي، يشعرني بالطمأنينة، رغم الأصوات الكريهة التي ترسلها طيور الحديد والتي ترتعش تحت ضرباتها جدران العمارة، الشبابيك وحجرات قلبي الصغير.

ما الذي يجري، لماذا كل هذه القسوة؟

ماذا يريد اليهود منا؟

أليس لهم أولاد وبيوت يخافون عليها؟

ألف سؤال وسؤال، تنبت الأسئلة في رأسي مدببة، جارحة، تصطدم في الجدران الصغيرة التي طوقَنا العالم بها.

أعترف بعدم فهمي لما يجري، وهل ما يجري سياسة كما يردد الجميع. ولكن هل السياسة تسبب كل هذا القتل والألم، أتذكر كلام جدتي " أم فتحي" عن البيت والأرض الذي هُجِّروا منها، حيث عاشت عمرها كله في المخيم ورفضت الانتقال

للعيش معنا في شقتنا في مدينة غزة، كانت تصر أنها لن تغدر المخيم إلا إلى أحد مكانين؛ القبر أو العودة إلى حيفا.

لكن لماذا نتعرض لهذا الظلم والإعتداء؟ لماذا لا يتم انهاء هذا الأمر ليعيش الجميع في هدوء وسلام. مرة أخرى يقولون السياسة.

الوقت غير مناسب كي اسأل والدي ما الذي يجري ولماذا، فهو في حالة يرثى لها.

قررت منذ الصباح الكتابة في دفتر بدل الكتابه في المفكرة، فالدفتر سيمنحني مساحة أكبر كي أكتب كل ما أريد، الكتابة تدخل الطمأنية الى قلبي، وفي كل مرة أمسك هذا الدفتر، يتراءى لي وجه مدرسة اللغة العربية الفاضلة "ست وداد"، أفكر فيها كثيراً وفي الحال الذي يمكن أن تكون عليه، أتمنى لها من قلبي أن تكون بخير هي وأسرتها.

"ست وداد" هي من أخرجني من القمقم الذي عشت بداخله وساهم والدي ووالدتي وجَدَّتي وعمَّاتي في تفصيله.

كنت وحيدة أمي وأبي، بل أنني وكما تردد جدتي "أم فتحي" جئت بعد سبع سنوات عجاف، عملية زراعة واحدة، حقن باهظة الثمن، أطباء كثيرون، وأشياء كثيرة تقولها لا أفهمها، أو بالأحرى لا أسمعها.

فيما بعد تحولت هذه المعاناة التي لقيها كل من أمي وأبي وباقي أسرتي، تحولت الى فرح ممزوج بالخوف الدائم على الصغيرة التي حضرت وأضفت على البيت فرحاً غامراً وساهمت في تثبيت رباط زواج يتعرض في كل مناسبة الى نيران الأصدقاء قبل الأعداء.

ساهم حضوري كما تردد أمي في عدم انهيار زواجها بعد أن نفذ صبرها أو كاد من المكان وأهله، من عاداته وجنونه وحروبه وحتى بحره، من الكلام المباشر من الهمز واللّمز الذي يطوقها من كل مكان، من زميلات العمل، الطالبات، الجيران ودائماً الأهل والأقارب، من طعام أهله وشرابهم وعادات النوم والصحو التي اكتسبوها خلال السنوات الطويلة التي قضتها غزَّة وأهلها في جيرة حسنة مع البحر، وعداوة لا تقبل القسمة مع الغزاة.

تحول الرجاء والفرح الى خوف دائم، ورعب يترصد الأهل من مكروه يقع لي أثناء اللعب أو النوم أو التنفس أو مقابلة البحر أو الشارع، أو حتى الهواء الطلق خشية من أن أصاب بنزلة برد عابرة.

فيما بعد تطَّور هذا الخوف على الطفلة الوحيدة الى ما يشبه المرض، اصيب به جميع من عرفني. فقبل عمل أي شيء

يتوجب عليّ وعلى من يحيط بي أن يحسب النتائج المترتبة على هذا الفعل، والشر الباطن الذي يمكن أن يختبىء في الثنايا.

في مرحلة متقدمه استحال هذا الحذر الى تقوقع وعزلة أخترتها بنفسي وفرضها هواء البيت وتعليقات الأهل والأصدقاء والنسوة من معارف أمي وجدتي وعماتي.

كانت أولى اختبارات الحياة التي فشلت بها، عندما ذهبت الى المدرسة، حيث اكتشفت عالماً أكثر اتساعاً من بيتنا، وآفاق بعيدة تتعدى الأسوار التي نصبتها لي جدتي في تعليقاتها المتكررة، خوفاً وحباً على وجودي.

على إثر ذلك عشت اضطرابات نفسية وجسدية أكبر وأكثر من احتمالي.

بقيت على حال التأرجح بين ما أريد وما يريد من هم حولي سنوات كثيرة، صداقاتي محدودة، تصرفاتي يصبغها الانطواء، أجد سلوتي في العزلة، ورغبة تتعزز في المناسبات في السكون، خشية من مفاجأة ربما يترتب عليها انهيار الأسرة.

تبالغ المعلمات في السؤال عن أحوالي، أُعامل بخصوصية عمّقت عزلتي، الأمر الذي زاد إحساسي بالوحدة وربما النقص.

وحدها معلمة اللغة العربية في الصف السادس الأساسي أبدت موقفاً مغايراً، حيث أرسلت في طلب أمي عدة مرات،

وفي طلب أبي مرة أو اثنتين واستطاعت أن تقدم لي الحل السحري الذي أنقذ روحي من برد وحدتها، وحطم الأسوار العالية التي أحاطني بها الخوف من المجهول، في غياب الإيمان والأمل.

أشكرها بعمري كُلّه وأحبها واتمنى لها أن تكون هي واسرتها بخير حال. لقد عَلمت من والدتي أنني أقضي جُلً وقتي في المطالعة بعد أن أقوم بواجباتي المدرسية.

وبذاكائها وصبرها تراقبني بطرف عينها كما أخبرتني فيما بعد، واستطاعت بأمومتها الممتلئة، وطيبتها النادرة وذكائها الحاد أن تكشف عن مناطق مجهولة في قلبي، وبذلك وضعت خطتها المحكمة لإنقاذ روحي الغارقه في ظلمة يكبّلها الخوف من المجهول.

استطاعت أن تنفذ الى روحي وتكشف عن خبايا شخصيتي، مواطن الضعف ومكامن القوة، وبدأت بتشجيعي على الكتابه. خاصة بعد قراءتها لمواضيع الإنشاء التي كنت أكتبها في الصف. تصفق بكلتا يديها عالياً وتطرب عندما كنت أنتهي من القراءة، بل وتدعو بعض المدرسات لسماع قراءتي في الصف.

فيما بعد أقنعتني بخفة وذكاء بجدوى الكتابة كوسيلة للتنفيس عن كل ما يعتمل في القلب من شوائب، بل أكثر من

ذلك أحضرت مفكرتها الشخصية التي تكتب بها يومياتها، وكيف أنها تعيش لحظات ممتعة تختلسها من فم ليل أو نهار تخاطب فيها ذاتها، وتُشهد جوارحها على قلبها.

ولشد ما أدهشني وأدخل السرور الى نفسي في بداية العام 2006 عندما أحضرت لي مفكرة العام الجديد، وطلبت مني أن أعِدها بكتابة ما يجول بخاطري في المفكرة يوماً بيوم، دون تردد، وعندما لا أجد ما أكتبه، أنقل الى تلك المفكرة ما يلفت انتباهي من أبيات للشعر أو أيات قرآنية، أو مقولات لكبار الكتاب وأصحاب رأي، مواقف سطرها التاريخ أو قصص لفتت انتباهي.

أحبها بمجامع قلبي وأسأل الله القريب من قلبي، أن تكون بألف خير هي وباقي أسرتها.

بعد ذلك داومت على كتابة ما يمكن تسميته ملاحظات أو مذكرات أو مخلفات نفسي المتراكمة منذ زمن بعيد، واستطعت أن ابرأ من الكثير من المعضلات التي طالما وقفت حاجزاً أمامي في مواجهة العالم والبحر المطل علينا من بعيد ونشاهده من شرفتنا.

تحول حب والداي الممزوج بالخوف والترقب، الى حب ممتلىء بالرجاء والإعجاب.

بدأت بالتخلص شيئاً فشيئاً من خجلي، بل تحول هذا التردد والتورد الذي أحسه في الأمكنة العامة، تحوّل الى ثقة، وجرأة يجللها خجل البنات الحميد.

يداعبني والدي أحياناً يناديني بالكاتبة الصغيرة، وأحياناً يشبهني بـــ "مي زيادة"، يشتري الكتب التي تهمه في رأس كل شهر كعادة قديمة بقي يداوم عليها، وأخذ يحرص على اصطحابي الى المكتبات في كل مرة لشراء الكتب بل أخذ يخصص لي هامشاً كي أختار ما أريد من تلك الكتب.

بين الحين والآخر تستأذنني أمي في امتاعها بما أكتب، فقد كانت أكثر المحتفين بعادتي الجديدة والتي أسفرت عن تفاهم صامت بين الجميع، وعاد نهر علاقتنا يسير بهدوء وسلاسة؛ تشتري الأقلام الملونة والجميلة وأحياناً الكتب لإسعادي.

في الواقع أصبحت الكتابة في المفكرة، عادة يومية تجلب لي السعادة المتجددة دون أن اصاب بالملل، وبقيت معلمتي الفاضلة "ست وداد" تسألني مراراً وتكراراً عن كتاباتي، أطلعها على بعضها وتقومني، تنصحني بقرآءة كتاب باسمه، وأحياناً تحضر لي من بيتها بعض القصص، وفيما بعد أصبح شائعاً في بيتنا أن "عيوش" لا تقبل الهدايا في عيد ميلادها أو أية مناسبات أخرى سوى الكتب، خاصة الأدبية منها كدواوين الشعر والروايات وحتى كتب فن الخطابة وكتابة السيرة.

واستطعتْ بفضل الله ثم برعاية الفاضلة "الست وداد" أن يصبح لحياتي معنى أعيش به ومن خلاله على الأطراف الجميلة لوجودي.

منذ ذلك التاريخ وأنا أتلقى في شروق كل عام جديد مفركرتين واحدة من أمي وأخرى من أبي، في العام الماضي أهديت إحداها الى صديقتي الأثيرة الى قلبي "جميلة".

الأمر الآخر الذي تعلمته من الفاضلة "ست وداد" وهو ما استغرق وقتاً طويلاً كي أفهم مغزاه، وهو "القدرة على السؤال" كانت تردد دوماً:

" أنا اسأل إذن أنا موجود" على نسق موقولة صاحب الشك الديكارتي " انا افكر إذن أنا موجود"

تكرر دوماً في حصة اللغة العربية أن السؤال هو دليل الحياة، واستطاعت أن تزرع في عقولنا الصغيرة بداية الرغبة في السؤال.

كانت تؤمن أن الصغار وحدهم يملكون جرأة السؤال وأن الكبار هم من يقتلون هذه الجرأة، وهم بذلك يُحَجِّمون عقول صغارهم، يبنون دونها السدود والعوائق التي تحول دون تطورهم، وبالتالي مقدرتهم على الإبداع.

تقول "مهم أن نسأل، ومهم أيضاً أن نعرف ماذا نسأل، كيف نسأل ومتى نسأل ؟"

عندما بدأت أفهم كلامها، بدأت اسأل، وقد كان للبيئة التي أعيشها في رعاية أب يعتني بالثقافة والفكر، وأم تُدَّرس الموسيقى وتعزفها، كان لتلك البيئة أكبر الأثر في تنمية هذه العادة في طرح الأسئلة، وفي تلقي أجوبة حاضرة من أب يستمتع في احتضان ابنته وتدليلها.

لا يكاد يمر يوم دون أن أكتب في مفكرتي سؤالاً جديداً أوجهه أولاً لنفسي والى يوم سأجد فيه إجابة ما، فيما بقيت الكثير من الأسئلة عالقة في الهواء دون إجابات شافية.

لكن شروق هذا العام كان ظالماً، غافلنا جميعاً، لم يتسنَ لي الحصول على مفكرة العام الجديد، فقررت أن أكتب ومن اليوم الثاني للحرب على دفتر مدرسي، على أمل أن تزول الغمة وأحصل على مفكرة العام الجديد، وتعود شمس غزَّة تشرق على بيوتها الواطئة منها والعالية.

نحاول امتصاص الكهرباء الباقية في الأسلاك حتى آخر قطرة منها، ففي كل لحظة يمكن أن تداهمنا العتمة يرافقها الخوف من رعب الليل وصوت القدر.

يحدق والدي في الشاشة ما بقيت تعمل، وأختلس أنا من فم الليل المشوب بالصمت الحَذِر، أختلس بعض سكونه لأكتب

الأفكار المتلاحقه في رأسي وهي تسابق العتمه والخوف وبرد المكان.

تجاوزت ساعة الحائط المنصوبة في الجدار الواحدة بعد منتصف الليل،   فيما والدي ما يزال يحملق في الشاشة الصغيرة، تتغير معالم وجهه تبعاً للمشاهد، يحوقل ويدخن بشراهة، بدأ والدي يتململ وينظر في ساعة يده، وأظنه ينتظرني كي أفرغ من خلوتي المسائية للكتابة، أمي يرتفع شخيرها الى درجة لن يستطيع أن يغطّي على الأصوات الكريهة القادمة من جوف الليل وعمق الفضاء، بالمناسبة الحرب أثبتت أن أمي تصدر شخيراً متواصلاً تقريباً أثناء نومها، وهي حقيقة بقيت تتكرها لسنوات، وكنت أثني على كلامها مقابل احتجاجات والدي المتكررة، والتي غالباً ما كان يتخلى عن إدعائه هذا مقابل دفاع أمي المستميت ومساندتي لها، ينكفىء وينسى، لكنني وبرغم ثبوت "الشخير" بما لا يقطع مجال للشك، لن أناصره عليها، بل سأبقى أصر وأنا ابتسم أنها خالية من "الشخير" في حياتها.

ها هو والدي يومىء لي باتجاهها في حركة يتقنها، وقلّد شخيرها لكنني تجاهلت حركته وكتمت ضحكة صغيرة، فهم قصدي تماماً ولم يعد للتكرار؛ ربما كان بحاجه الى إثبات مادي

يثبت لكائن بشري واحد على وجه الأرض أنها "تشخر" أثناء النوم ولا شيء سوى ذلك .

سنذهب الى النوم الآن، لكن ما زلت أسمع ويسمع العالم أصوات عواء طيور الحديد، والإنفجارات الناجمة عن اصطدامها بالبشر والحجر.

السؤال:

هل تستطيع الطائرات المدوية في المساء، أن توقف أحلامي ما بقي في جوفي حياة؟

(اليوم الثالث)

الأثنين 29 كانون أول \ ديسمبر – 2008

الساعة السادسة صباحاً..

ننام ولم نزل نسمع الأصوات تدوي في سماء رؤوسنا فضلاً عن السماء العالية فوقنا، عندما ندخل جوف النوم الذي يغذيه اضطراب جوارحنا وتعب عيوننا المحدقة في المجهول وفي شاشات التلفزة، عندما ندخل عمق الليل بعيوننا المغلقة على حزنها تتسلل الأحداث الى رؤوسنا على شكل أحلام لها نهايات مفزعة تتحول في بعض الأحيان الى كوابيس.

قال والدي معبراً عن هذه اللحظة الغريبة أنها الجسر القصير الذي يفصل بين الرجاء واليأس، بين الموت والحياة، أول لحظة صحو تشكل صدمة الحياة بعد توقع الموت.

عندما نصحو، في صباح ليس له بِكرُ الأصباح، يمر بعض الوقت نتأمل فيه الوجود نختبر وعينا وأحاسيسنا، فربما هو وعي الموت الذي نعيشه جنباً الى جنب مع وعي الحياة. نسأل انفسنا بصمت واحد وإيقاع رتيب، هل ما زلنا أحياء؟؟

لنكتشف في اللحظة التالية أننا ما دمنا نسأل فنحن أحياء.

السؤال: إذا كان الماء بلا لون ولا طعم ولا رائحة، هل للموت طعم أو لون أو حتى رائحة ؟

الساعة الواحدة ظهراً..

أصوات الإنفجارات القادمة برتابة من الأرجاء المحيطة بنا، تقتل رتابة الوقت الذي نمضيه في البيت في انتظار ما، للاحتمالات المفزعة التي تتجول في عقولنا، للسناريوهات المرعبة التي تسبح بسلاسة في مياه قلوبنا، نترقب المجهول الكريه الذي حل على البيت وكافة بيوتات غزّة.

ها هو اليوم الثالث يمر دون أن تخطو أقدام أيّ منا خارج الباب، حاول جارنا "أبو الفهد" أن يستفز والدي أكثر من مرة للزيارة للخروج ولو لنصف ساعة خارج العمارة، لكن جوبه بالرفض والصدّ أحياناً، بدأت أنتبه للكثير من العادات التي يمارسها والدي ووالدتي على حد سواء، فهما بالمجمل لا يفضّلون الاختلاط كثيراً بالناس، لا لسبب، إنما لانشغالهما المستمر في العمل وفي البيت يقضيان وقتاً ممتعاً في ممارسة هوايات متعددة، أمي تعزف وهو يرسم قليلاً ويقرأ الكثير، يجلس إلى الحاسوب ويجري الكثير من المراسلات وأحياناً

التدوين، ويعتبر ذلك بالنسبة له متعة وواجب تمليه علية مسؤوليته الوطنية.

كان يمكن لهما أن يجلسا في البيت لأسابيع دون أن يتسلل السأم اليهما وأنا كذلك، فلدينا الكثير لعمله، لكن هذا الجو المأزوم المفروض علينا يمنعنا من الإستمتاع بالوقت الوفير.

أشاهد والدي يتردد بين شرفة وأخرى من محطة الى أخرى، من إذاعة لأخرى يجري الكثير من الإتصالات، يتحدث بعصبية مع الجميع، يدخن، يصمت يحملق في البحر، ويرسم على وجهه تكشيرة عريضة لا تليق بشخص أحبه بعد الله مباشرة.

أما "الإسكندرانية" أمي فهي قصة أخرى، لكنها تجد في الأزمات ما تفعله دون أن تدخل في دوامة الحيرة التي نعيشها أنا و"الغزاوي" أبي، ألا وهو النوم.

"الغزاوي والإسكندرانية" عنوان جميل لكتاب سأكتبه يوماً ما عندما أكبر وتتعمق تجربتي، وأفهم الكثير من مغاليق الحياة الزوجية وغير الزوجية.

عندما يشتد العراك بينهما لسبب ما وفي أغلب الأحيان لا أفهمه، يبدأ هو بإرسال دعاباته واستفزازاته أحياناً، يقول بصوت تسمعه "شو أخبار الإسكندرانية"، وعندما تريد أن تغيظه في أمر ما تقول "هيك بدّه الغزاوي أبوك".

هي المرة الأولى التي يسمح لي بتصفح رسائله الإلكترونية الهامة والتي يضعها في ملف خاص باسم " "Important" وهي في مجملها مشاركات تصله من أصدقائه عبر العالم العربي وقد لفت انتباهي هذه القصة.

سباق الضفادع

"اتفقت مجموعة من الضفادع الصغيرة على تحديد موعدٍ للتسابق وصعود أطول الأبراج الموجودة في مدينة "غزَّة" وكان اليوم الموعود، احتشدت الجماهير وبدأ السباق نحو الأعلى، كانت الجماهير تهتف وتصيح، هذا مستحيل لن تستطيعوا الوصول الى الأعلى، الضفادع لا تستطيع تسلق الأبراج، فبدأت تتساقط الضفادع واحداً تلو الآخر.

يتعالى الصراخ، هيا عودوا لإنه لا أمل لكم بالوصول الى الهدف، فتوالى سقوط الضفادع، يصيح أحد الماره هذا جنون، هذا غير ممكن، بل هذا هو الجنون بعينه، يواصل البعض. بينما يتساقط الكثير من الضفادع،

الجماهير تهتف وتؤكد عدم إمكانية الوصول الى قمة البرج العالي، حتى سقطت جميع الضفادع باستثناء ضفدع واحد فقد واصل الصعود رغم كل الهتافات والنصائح والرجاء بعدم الذهاب الى حيث التهلكة.

بإصرار وأمام الجماهير المحتشدين وعابري الطريق وصل الضفدع أعلى البرج وتربع فوق القمة.

أثناء ذهول الجميع ودهشتهم، اجتمعت الضفادع الخاسرة لمناقشة كيفية وصول هذا الضفدع ومعرفة سر نجاحه، كانت النتيجة أن ذلك الضفدع الناجح كان أصمّاً، ولم يتمكن من سماع صيحات التحذير التي كانت ترسل اشارات سلبية للجميع بأنهم لن يصلوا الى القمة، الأمر الذي ساهم في سقوطهم وخيبتهم."

لم أملك دموعي بعد سماع هذه القصة الغريبة والمليئة بالرموز التي تغيب عن الكثير من زميلاتي في المدرسة، وحتى هذا الوقت كانت غائبة عني أنا.

سأعود مباشرة بعد تناول طعام الغذاء. لكن قبل ذلك.

السؤال:

ما وجه الشبه بين علاقة الليل والبحر وعلاقة الإسكندرانية بالغزاوي ؟

<u>الساعة الثانية والنصف ظهراً..</u>

برغم حماستي قبل تناول الطعام إلا أنني لا أجد ما أكتبه الآن، يحاول والدي إبعادي عن شاشة التلفاز، كي لا أُشاهد

الصور الملونة بالأحمر، لكنه لم يستطع أن يحول دون سماعي لأصوات النسوة يبكين ولداً أو والداً.

تناولنا الطعام على عجل، ودون متعة، رغم أن أمي أسرفت هذا اليوم في إعدادها لطبقين مختلفين، في محاولة ربما لإشغال نفسها بأشياء تنفق فيها بعضاً من الوقت الطويل.

أثناء تناولنا الطعام على طاولة صغيرة في زاوية الحرب الأثيرة وقد اختصر البيت بوسعه بها، على الجريدة القديمة التي افترشها والدي لفت انتباهي قصة رمزية أعجبتني فقررت كتابتها، القصة بعنوان "صاحب الضفدعة" . ما بال الضفادع هذا اليوم.

"يروى أن أحدهم أحضر ضفدعة من الحقل المجاور ليجري بعض الاختبارات عليها، وضعها أمامه وقال لها: نُطّي، فنطّت، فكتب في الدفتر، قلنا للضفدعة نطي، فنطّت.

في الخطوة التالية قطع يدها اليمنى وقال لها: نُطّي، فنطّت، كتب في دفتر الاختبارات خاصته، قطعنا اليد اليمنى للضفدعة وقلنا لها نُطّي فنطّت.

قطع يدها اليسرى وقال لها نُطّي فنطّت، كتب صديقنا الهُمام العبارة التالية في دفتره، بعد قطع اليد اليمنى واليسرى للضفدعة قلنا لها نُطّي فنطّت.

ثم قطع رجلها اليمنى، وقال لها: نُطّي، فنطت بصعوبة، فكتب ملاحظته التالية في دهشة، بعد قطع يديها اليمنى واليسرى ورجلها اليمنى، قلنا لها نُطّي، فنطّت.

في الخطوة الأخيرة كما حدَّث نفسه، قطع رجلها اليسرى، في سادية تنكرها جمعيات الرفق بالحيوان، قال لها: نُطّي، ..نُطّي..نُطّي. لكنها لم تتحرك من مكانها. كتب صديقنا القاسي الملاحظة التالية. " قطعنا يدي الضفدعة ورجليها، وقلنا لها نُطّي فلم تنطّ، ومن هنا أثبتت التجربة أنّ الضفدعة وربما باقي الضفادع، إذا قُطِعت يداها ورجليها فإنها بالضرورة تصاب بالصمم.

بعد أن كتبتها في دفترى قرأتها على مسامع والدَّي.

ضحك والدي بقلبه، وابتسمت أُمي بوسع شفتيها الرقيقتين.

السؤال:

هل فقدت الضفدعة مقدرتها على الإستنتاج بتوالي فقدها لأعضائها؟

(اليوم الرابع)

الثلاثاء 30 كانون أول \ ديسمبر – 2008

الساعة الحادية عشرة والنصف ظهرا ..

الشمس تقف وقفة جاهزية في كبد السماء، تحدق في المارة غير عابئة بتفاصيل حياتهم الصغيرة المملة والمتكررة.

ألومها في نفسي على صمتها، لماذا مثلاً لا تُرسل بعض حممها الملتهبة على الظَّلمة أينما وجدوا، لتساهم ولو بالقليل في تحقيق العدالة المفقودة على الأرض.

سمعتها تهمس بصوت حار من بعيد، أنت لا ترين ما أرى من مكاني البعيد هذا، تفاصيل البشر كثيرة، وظلمهم أكبر من تفاصيلهم.

سألت والدي وهو يقف وقفته المألوفة في مواجهة البحر هذه المرة :

هل الله عادل؟

انتفض من وقفته كمن سكب على رأسه معدن مصهور.

كان يصلي أوقاته كلها، لم يكن ملتحياً، ويعتمر في قلبه إيمان وحب كبيرين.

استدار نحوي وقاوم انفعاله ليترك أثراً في نفسي عميقاً قال:

"عيوش" أنا أعرفك مؤمنة ومثقفة وناضجة برغم صغر عمرك، طوّقني بذراعه وتابع.

– أنا لن أجيبك مباشرة وأقول لك أن الله أعدل العادلين وأحكم الحاكمين، وأن الله أرحم بالبشر من أنفسهم فهذا لا بد تعرفينه، لكن أقول لك عبارة سمعتها ذات مرة، ومن وقتها أطمئن بها قلبي، لأنها إرادة الله ومشيئته، وأنصحك أن تكتبيها في دفترك وتحفظينها وتؤمنين بها، تأمل السماء قليلاً وأشرق وجهه، ثم قال:

" لن يستطيع أحد أن يُدرك عدل الله إلا إذا علمَ بِعلمه."

تأمل كلانا السماء باطمئنان ورجاء.

جميل والدي وحنون، وعميق كأنه البحر، لكنه قليل الكلام كثير الصمت، ولا تستطيع أن تدرك عمقه، تماماً كالبحر حتى تختبره.

يُقرع جرس الباب، ينادي والدي بأعلى صوته، كي يفتح أحد الباب، يطل رأس صغير من بين أقدام أمي، تبعه رأس الرجل الذي لا أفهمه، جارنا "أبو الفهد" "الباب في الباب" كما يصفه أبي.

تقاطعت عيوننا الثلاثة معاً في لحظة نفهمها جميعاً، تمتم والدي، ابتسمت في سرّي أنا وضحكت أمي بطرف فمها، وأشارت للرجل بالدخول، قالت وهي تغلق الباب وتذرع الصالة

باتجاه المطبخ "قهوة، شاي، يانسون، اتغديت يا أبو فهد" لم تنتظر إجابته، ولم يرد هو.

"أبو الفهد" يعني قهوة سجائر وحوارات تمتد لساعات، يتلوها ويتخللها ارتفاع أصوات وربما تصل الى درجة دق الأرض بالأقدام أو دق الجدران بقبضة اليد.

يتناقل أخبار الداخل والخارج، يطلق التصريحات، يقدم التحليلات، ينتقد، يسب يقدح ويمتدح.

أما الصغير فيجد عند أمي ما يريد، فهي تجد في اسمه ما يذكرها بشقيقها "أمين" وربما تتلمس به مشاعر كامنة بداخلها للولد الذي لم تنجبه.

لكن "أبو الفهد" لا يدع مجالاً للحوار، يقاطع بطريقة فجة، من يراقبهما يدرك أن ما يدور بينهما أشبه بعراك لفظي لا يمت للحوار بصلة.

سرعان ما ينسجم والدي مع وجود جار "الباب في الباب"؛ في الأيام العادية يتلافى والدي لقاءه قدر الأمكان، لكن في هذا الجو المأزوم، والبقاء لأيام في البيت لمراقبة الشارع، البحر، الشاشة الصغيرة والموت، يجعل من الساعات في منتهى القسوة، وبالتالي يصبح شخصاً مثل "أبو الفهد" نعمة يجود بها السحاب في صحراء صماء قاحلة.

يُعيدان قراءة نشرة الأخبار بتلذذ غامض، يرسلان النكات وأحياناً يُنَصِّبان أنفسهما حكماً للمواقف المعلنة من الأطراف جميعاً.

يقول "أبو الفهد" وهو يوسِّع من عينيه ويتركهما تبرزان حتى تتساويا في بروزهما مع أنفه المفلطح:

ـ"والله يا أبو العبد، ما في زلام إلا هوجو.."

ـ" مين هوجو.؟" يقول والدي في هزل ..

ـ صاحبنا من "فنزويلا" ما سمعته.

ـ أه.. الرئيس الفنزويلي..

يضحك كلاهما، وأتركهما يواصلا حوار الطرشان.

أرسلت لي صديقتي "أمل" من نابلس رسالة على البريد الإلكتروني سأكتبها كي أعود لها مرات ومرات اقرأ كلماتها على مسامع والدي بعد مغادرة "أبو الفهد" جارنا" الباب على الباب".

قصة الدودة:

اجتمعت مجموعة من الديدان تعيش فى وحل بركة.

وكان حديثهم كالعادة، هو الحياة التى يعيشونها.

قالت احداهن:

– هل تظنون أن فى هذا العالم، شيئاً آخر غير هذة البركة الضخمة، والتى لن نقدر أن نبلغ نهايتها حتى وإن زحفنا كل أيام عمرنا؟

قالت أخرى:

_"ألا ترين أيتها الدودة ضوء القمر ليلاً وأشعة الشمس نهاراً."

_"لا أنكر وجود الشمس والقمر وأظن لا يوجد فى المسكونة غيرهما مع البركة."

ضحكت دودة مسنة وقالت:

_ "يالك من دودة محدودة الفكر، أما توجد ضفدعة تنزل الينا فى الوحل ، ثم تعود فى الليل وتخرج، حتما يوجد عالم آخر بجوار البركة." تحمست الدودة الأولى وقالت:

_ هلمَّ نسأل الضفدعة لعلها تفيدنا.

_ مرحباً أيتها الضفدعة الضخمة.

قالت الدودة الثانية في إرتباك وتابعت.

_ نراك فى كل ليلة تخرجين من البركة، فهل يوجد عالم آخر خارج البركة؟

ضحكت الضفدعة فى كبرياء وتشامخ و قالت

_"نعم يوجد عالم كبير جدا خارج البركة"

_"هل ممكن أن تصفية لنا".

ـ"أنا أذهب الى حقل بجوارنا فيه أشجار فاكهة كثيرة ويوجد منزل ضخم، وفى الحديقة يوجد تفاح أحمر وأصفر وبرتقال أصفر وورد أحمر وبنفسجي، أرى فى الصباح طيوراً لها أجنحة كبيرة تطير بها فى الجو.

لم تسطتع الديدان المسكينة أن تفهم الأرض الجافة ولا معنى الحقل ولا الفواكة ولا الألون ولا الطيور التى تطير، البعض صدق كلمات الضفدعة وطلب منها أن تصف أكثر تفصيلا ما تراه، والديدان الأخرى استهزأت بما تقول الضفدعة قائلين :

"إنها تهذى".

فى الصباح التهب شوق إحدى الديدان أن ترى هذا العالم الغريب خارج الوحل الذى تعيش فيه الديدان، فوجدت ساقاً لنبات صغير تسلقت علية لترى ما هو خارج الطين، لكن سرعان ما ضربتها أشعة الشمس فكادت تجف، ارتجفت الدودة جداً و خافت ولم يكن أمامها أية وسيلة لإنقاذ نفسها، سوى أن تلقى بنفسها سريعا من أعلى الساق لتسقط فى الوحل من جديد وتعيش.

متى تتغير طبيعتى فانطلق من الوحل الى جو السماء وأرى ما لم تراة عيني وما لم تسمع به أذني وما لم يخطر على بال الديدان ؟![3]

عندما انتهيت من كتابة القصة على الدفتر داهمني الجوع فجأة، كان ما يزال "أبو الفهد" يتكلم ويشير بيديه في الإتجاهات كلها، وكان هذه المرة حديثهما عن تركيا، وموقف شعبها وزعامتها، لكن كان صوت "أم الفهد" قد ملأ الصالة متسرباً من خلف الباب على زوجها "هادي البال" الذي يعمل زيارات للجيران بينما يموت الناس في الشوارع.

متثاقلاً نهض من مجلسه؛ وبقي صوت الزوجين مسموعاً من خلف الباب وهما يتبادلان الملامة.

السؤال:

ما هي حدود إسرائيل؟

بعد مغادرة أبو الفهد قرابة الثانية نقلت الجدران أصوات ارتطام زجاج بالأرض، أصوات صراخ أطفال، وألفاظ نابية تبادلها الزوجان.

---

[3] من كتاب قصص رمزية قصيرة لـــ "تادرس يعقوب"

زوجته تغار بشدة من الإسكندرانية أمي وتخاف أن تسرق "أبو الفهد" منها، أضحك في سرّي من أفكار "أم الضبع" هذه. طبعاً الحياة لا يتوقف إيقاعها الغريب دون أن تأبه للقصف المصبوب من الإتجاهات كلها، يسير الموت بخطىً حثيثة باتجاه الجميع، لكن يبقى ايقاع الحياة يفرض نفسه على التفاصيل.

"الزنانة" هو الأسم الذي يطلقه أهل غزة على الطائرة بدون طيار التي لا تنفك تصدر صوتاً يسخر من أسماع السكان، لكنه استحال مع مرور الأيام الى صوت مألوف تعودت عليه آذانهم وإن لم تعتد على الأذى والموت المنبعث في شكل إشارات أن اللحظة التالية ربما تطلق صاروخاً يستهدف بشراً لون دمهم في الحقيقة أحمر.

أتمنى أن أكتب عن ما يدور في الشوارع، بين الأزقة وفي الحارات وحتى في البقع الساخنة، وفي ذلك أنا لا بدّ أُبالغ بعض الشيء فأنا أضعف من مجرد النظر نحو الشارع.

كلما جلست للكتابة على ايقاع الأصوات القادمة من الجو ينتابني شعور بالذنب، ترى هل هو الوقت المناسب لكتابة المذكرات، وما الفائدة من هذه الأوراق إذا كان الموت ينتظرنا جميعاً، يحدق في عيوننا صباح مساء، بالأمس لاحظ والدي حيرتي، وكعادته يستشعر أفكار رأسي باكراً، صارحته بما يدور

في خلدي، وكعادته أيضاً ساعدني في رؤية الأمر من زوايا أخرى تغيب عن بالي، قال ما هو البديل، أن تجلسي يطوقك الخوف من كل جانب، بالعكس الفضائيات تنقل لنا صوراً منزوعة من سياقاتها، بيوت مهدمة على أصحابها، شوارع أحالتها القذائف إلى خنادق، أبراج ما عادت تصلح للسكنى، تنقل لنا أعداد الشهداء ولا تذكر أسماءهم، لكنها لن تستطيع أن تنقل التفاصيل الصغيرة لحياة الغزّيين كيف يقضي سكان البيوت هذه الساعات البغيضة، ماذا يأكلون؟ بماذا يفكرون؟ بماذا يشعرون؟ ربما تستطيعين أنت والكثير من أمثالك ممن اعتادوا كتابة ملاحظاتهم اليومية، ربما تستطيعين أن تعبري عن بعض ما يجول في خواطرهم، وفي الحد الأدنى، ستساعدك هذه الكلمات على التحرر من التوتر وربما تخفيف الاحتقان الذي نعيشه جميعاً، لم يقل ذلك فحسب، بل تمنى صادقاً لو يستطيع الكتابة ويملك ما أملك من الإرادة والرغبة التي أملك وأتحلى بها.

السؤال:

هل يوجد على سطح القمر أعداء؟

الساعة العاشرة ليلاً..

في الأيام العادية، لم أكن أفكر في أهمية الكهرباء التي تصلنا الى البيت دون مشاكل أو انقطاع، بل أنني لم أظن أن منتجاً حضارياً كهذا يساهم في تشكيل حياتنا بالصورة التي هي عليه حتى بدأت تختفي بشكل يومي، لا تلفاز لا كمبيوتر أو نت ولا حتى نور نشاهد به الدنيا وأنفسنا عندما تغطي الشمس وجهها وتتكفىء في ساعات راحتها الليلية. أين تذهب الشمس في المساء، تقول " ست منى" معلمة الجغرافية أنها تذهب في زيارة يومية الى الوجه الآخر للأرض، في حركة يومية دون ملل أو كلل مع تغير طفيف في مواعيد الذهاب والعودة يتناغم مع مزاجها المتغير دوماً.

أصبحنا نغيِّر من أنساق حياتنا تبعاً لظهور الكهرباء المفاجىء أو غيبتها المحتملة.

في الأيام الأولى لم نكن نعاني من هذه المعضلة، لكن فيما بعد أصبحت الكهرباء صديقاً وعدواً في آن، في غيبتها يتحول الخوف الذي تفرزه أصوات الإنفجارات والصرخات وأصوات سيارات الأسعاف يتحول الخوف الى فزع، يتراكم في ثنياته رعب المكان صمت سواد الليل والأصوات المباغته، والأنوار الليلية الناجمة عن القنابل المضيئة الباحثة عن الموت.

عندما تعود الكهرباء يذهب كل إلى شأنه يلتصق والدي بالشاشة الصغيرة، باحثاً في عبث عن بصيص أمل، عن نهاية ما، تنهي هذا الجنون، دون أن يجد ما يطمئن قلبه وقلوب الملايين ممن يعيشون اليوم على وقع القنابل وآثار الدم الساخن.

أما أنا وأمي فنتبادل جهاز الكبيوتر لنقرأ البريد الإلكتروني، ونرسل بعض الرسائل للداخل والخارج.

وصلتني رسالة ذات مغزى، من صديقتي "حنين" من حمص السورية، التي عرفتها دون أن أرى وجهها مباشرة من خلال المدونات المنتشرة على جسد بلاد العرب أوطاني كالندوب. تقول في رسالتها.

حبيبتي "عيوش"، أرجو أن تكوني بخير أنت والعائلة، قلوبنا معكم، أدعو الله العلي القدير أن تزول هذه الغُمَّة وينصركم إنه على ذلك قدير. والدي ووالدتي وأخوتي وجيراني يرسلون لكم تحياتهم وحبهم وإعجابهم ودعائهم لله القدير أن يكون النصر حليفكم.

صديقتي الغالية، في هذا الوقت العصيب أُرسل لك هذه المشاركة، ربما تدخل بعض التسلية الى قلبك الطيب، وهي نقلاً عن موقع الكتروني عربي.

قالوا قديما: خذ الحكمة ولو من أفواه المجانين.

دخل ثعلب مزرعة رجل، وبدأ يأكل من زرعه، الذي تعب في حرثه وبذره وسقيه طوال السنة.

فكر الرجل طويلا: كيف يمكن أن يخرج الثعلب، وبدأ السؤال محيراً؟

أسرع الرجل إلى البيت، جاء بعدَّةِ الشغل، فالقضية لا تحتمل التأخير. أحضر عصا طويلة ومطرقة ومسامير، وقطعة كبيرة من الكرتون المقوى كتب عليها بخـــط عريض "يا ثعلب أخرج من مزرعتي، أرجوك أن تخرج بهدوء ولن أؤذيك"

ثبت الكرتون بالعصا الطويلة بالمطرقة والمسمار، ذهب إلى حيث الثعلب يرعى في المزرعة، رفع اللوحة عالياً بحيث يراها الثعلب، وقف رافعًا اللوحة منذ الصباح الباكر حتى غروب الشمس ولكن الثعلب لم يخرج.

حار الرجل، وقال في نفسه: "ربما لم يفهم الثعلب ما كُتب على اللوحة"

رجع إلى البيت ونام ليله، في الصباح صنع عددًا كبيرًا من اللوحات، ونادى أولاده وجيرانه، واستنفر ما استطاع من أهل القرية، اصطف الناس في طوابير، يحملون لوحات كثيرة وكبيرة جداً وهم يصيحون في وجهه عاليا في إيقاع عشـــــوائي "اخرج يا ثعلب من المزرعة، الموت للحمير، يا ويلك يا ثعلب من راعي الدار، يا ثعلب بدنا نرميك في عرض البحر، وغيرها

كثير من الشعارات" تحلقت الحشود حول الحقل الذي فيه الثعلب، وبدأوا يهتفون بحناجر قوية، وفي أيديهم وفوق رؤوسهم تلك اللوحات الكبيرة.

والثعلب ثعلب، يأكل ولا يهتم بما يحدث حوله، غربت شمس يوم آخر، وقد تعب الناس من الصراخ والهتاف وبحت أصواتهم فلما رأوا الثعلب غير مبالٍ بهم، رجعوا إلى بيوتهم، وأخذوا يفكرون في طريقة أخرى لإقناع الثعلب.

في صبيحة اليوم التالي، جلس الرجل في بيته يصنع شيئاً آخر، خطة جديدة لإخراج الثعلب، فالزرع أوشك على النهاية، والثعلب لا يبالي بأحد، خرج الرجل بإختراع جديد، نموذج مجسم لثعلب، يشبه إلى حد بعيد الثعلب الأصلي، ولما جاء إلى حيث الثعلب يأكل في المزرعة وأمام نظر الثعلب، وحشود القرية الذين عادوا يهتفون ويصيحون. سكب الرجل البنزين على المجسم، وأحرقه، فكبّر الحشد، نظر الثعلب إلى حيث النار، ثم نظر إلى الناس وهز رأسه، ثم رجع يأكل في المزرعة دون أن يبالي.

يا له من ثعلب عنيد لا يفهم، ما الحل مع هذا الثعلب !؟ أرسلوا وفدًا ليتفاوض مع الثعلب قالوا له: "صاحب المزرعة يريدك أن تخرج، نرجوك أن تخرج، قالوا له: هو صاحب الحق، وعليك أن تحترم ذلك فتخرج. نظر الثعلب إليهم بثبات

وعاد للأكل، دون أن يكترث بهم، أرسل الرجل وسيطاً آخر، بل عدة وسطاء.

قالوا للثعلب: صاحب المزرعة مستعد للتنازل لك عن بعض من أرضه، الثعلب يأكل ولا يَردّ، ثلثها، الثعلب لا يَردّ، نصفها، الثعلب لا يَردّ، حدد المساحة التي تريدها، رفع الثعلب رأسه، وقد شبع من الأكل، ومشى قليلاً إلى طرف الحقل وهو ينظر إلى الجمع في استخفاف ويفكر، لم أرَ في حياتي أطيب من أهل هذه القرية، يدعوني آكل من مزارعهم ولا يطردوني ولا يضربوني كما يفعل الناس في القرى الأخرى، ما أطيب هؤلاء الناس، أو ما أشد سذاجتهم، فرح الناس وكبروا، لقد وافق الثعلب أخيراً. أحضر صاحب المزرعة الأخشاب، وسيَّج المزرعة، وقسمها نصفين، النصف الأكبر للثعلب طبعاً .

في صبيحة اليوم التالي، كانت المفاجأة لصاحب المزرعة وللناس جميعاً، لقد ترك الثعلب نصيبه، ودخل في نصيب صاحب المزرعة، وأخذ يأكل.

رجع الرجل مرة أخرى ومعه رؤوس العشائر والجماهير إلى اللوحات والمظاهرات والهتافات والشجب، والسب والتهديد، والتنديد ولكن يبدو أن لا فائدة، هذا الثعلب عنيد وصعب، وربما لا يفهم .

بدأ الرجل يفكر تفكيراً جدياً، في ترك المزرعة بكاملها للثعلب والذهاب إلى قرية أخرى لتأسيس مزرعة أخرى، وبدأ في إعداد العدة، وهو في حالة إحباط شديد، ومهانة كبيرة.

وأمام دهشة جميع الحاضرين، وفي مشهد فريد أمام الحشد العظيم حيث لم يبقَ أحد من القرية إلا وقد حضر، ليشارك في المحاولات اليائسة لإخراج الثعلب المحتل المتسلط.

إذ خرج من بين الحشود طفلٌ صغيرٌ مزهزاً بنفسه. سار بثقة أمام الجمهور الحاشد. تقدم باتجاه الثعلب الذي لا زال يأكل ويعيث في المزرعة فساداً. وقف الطفل أمام الثعلب في شموخ وتلا شيئاً من الدعاء في سره، ضرب الثعلب بعصاً صغيرة كانت معه ضربةً قويةً على قفاه. ارتفع عواء الثعلب عالياً، وأخذ يركض خارج الحقل بعيداً عنه، عائداً من حيث جاء وانتهت بذلك قصة احتلال الثعلب للمزرعة.

ضحك والدي بملىء قلبه، عندما وجدني جالساً أمام الحاسوب أتسلى بنسخ هذا الإيميل على "دفتر مذكراتي".

في الحقيقة أدهشتني ضحكته المدوية، واعتقدت أنه يبالغ على غير عادته، وعندما سألته عن ردّة فعله الهستيرية، هزّ رأسه وواصل ضحكه وطريقه باتجاه الشرفة ليمتص سجائره، ويحملق في الظالم البعيد كما يسميه. مصطلح "الظالم" بات يعني فيما بيننا "بحر غزّة"، لكن أمي "الإسكندرانية" رفضت هذا

الوصف، لأنها ببساطة ترفض أن تنعت بحر "الإسكندرية" العذب والأثير الى قلبها بـــ "الظلم". كان لكل منهما أسبابه وقناعاته الخاصة، دون أن يحاول أي منهما فرض رأيه على الآخر.

السؤال:

هل يفهم الأطفال في السياسة؟

وماذا يعرف السياسيون عن الطفولة؟

(اليوم الخامس)

الأربعاء 31 كانون أول \ ديسمبر – 2008

الساعة التاسع صباحاً..

كانت السماء ملبدة بالغيوم والدخان، فيما الشمس تتلصص باستحياء من بين غيوم غزَّة على باقي المجموعة الشمسية، حاولت للمرة المليون أن أحدق فيها، مرة واحدة على الأقل، لكنها لم تسمح لي البته، لا أدري من أدخل فكرة التحديق في قرص الشمس الى رأسي، وأذكر أن هذه الهواية الخطرة كلفتني في صغري المبيت في مشفى العيون ليومين عندما حاولت أكثر من مرة التحديق في وجهها، وبقيت طوال عمري أحاول باستحياء وفي غفلة منها ومن والدي ووالدتي أن أنظر في قلبها، مرة واحدة استطعت أن أحدق في جلالها قبل سنتين على ما أعتقد عندما كُسفت، واستطعت باستخدام نظارة شمسية ومراقبة والدي أن أحدق في قلبها مباشرة، لكن كانت المتعة منقوصة ومحفوفة بالترقب كمن يقترف ذنباً أثناء استمتاعه بفطرته.

التحديق في قلب الشمس أمنية سأعيش عمري ومماتي أتمنى أن تتحقق ولو لمرة واحدة.

بالمناسبة، هذا الجنون ليس طارئاً على حياتي، فأمي عازفة البيانو الماهرة، لها خطرات وشطحات مجنونة لا تقل

عن جنون أبي العاشق المؤمن بالبحر، يخاطبه، ينام الى جواره، يزوره في آخر الليل وبواكير الأصباح، يخاصمه، يقدم له الهدايا في المناسبات، يوبخه، يصالحه ، وأخيراً ينعته بالظالم.

السؤال:

أين العالم مما يجري في هذه البقعة من أرض الله؟

<u>الساعة الواحدة ظهراً ..</u>

لم أتمكن من هذا الصباح قراءة بريدي الإلكتروني حيث تعطلت خدمة النت ربما لأسباب تقنية أو بسبب انقطاع الكابل الواصل الى عمارتنا، اختلطت الأشياء بالأحداث بالشهداء بالدمار بالجرحى، بالخوف بالجوع في فوضى لا يملك عمري عقلا لإستيعابها، أو بث الإنسجام في عشوائيتها.

اليوم ظهراً حاول والدي الإتصال بالشبكة فوجدها تعمل، وكانت بمثابة سعادة صغيرة استشعرناها جميعاً؛ جلس والدي يقرأ بريده الألكتروني وفيما بعد والدتي وكان نصيبي هو الأكبر.

رسائل عديدة وصلتني من أصدقائي، في الواقع ذهلت بالحرب الدائرة عبر الشبكة، حملات دعائية مضادة، مدونات، حوارات، صور، كليبات، وغيرها من المواد التي تبحر عبر

الفضاء الى أنحاء العالم. وجدت في بريدي ما يزيد عن 18 رسالة من أصدقائي الكثر يسألون عني وعن صحتي وأحوالي.

في الواقع أعتز بهذه الصداقات رغم أنها ترهق كاهلي، أصدقائي من كلا الجنسين ومن جنسيات مختلفة، وقد تكونت هذه الصداقات من خلال حدثين هامين في حياتي؛ الأول عندما ذهبت وأنا في الرابعة عشر من عمري في رحلة بالسفينة لما سمي في حينها "سفينة السلام" حيث التقيت بأصدقاء من الأردن، قبرص، مصر، قطر، موريتانيا وغيرها، على مدار ثلاثة أسابيع زرنا فيها ثلاثة دول. أما الحدث الثاني فهو رحلة الى باريس وقضينا عشرة أيام ضمن فرقة موسيقية للأطفال تعرفت خلالها على أصدقاء من فرنسا كندا الهند واسبانيا.

في حينها قالت لي ليندا من كندا "لا أجد لبلدك أسماً على الخارطة" كانت تكبرني بسنتين ولم أستطع أن أرد عليها، رغم أنني أشرت الى الخارطة نحو بلدي لكنها لم تستطع أن تفهم لماذا لا يوجد اسم فلسطين (Palestine) على الخريطة.

فيما بعد بدأت أرسل لها مواد تفسر هذا، مونيكا من الهند كانت متعاطفة معي كثيراً وقريبة من قلبي، بقيت اراسلها حتى اليوم، دعاء من الأردن موزة من الإمارات، وائل من العراق، تسنيم من المغرب، والكثير الكثير منهم ممن أبقينا على علاقتنا من خلال البريد الإلكتروني نتراسل من فترة لأخرى وأحياناً

نتحادث عبر المسنجر، اليوم كلهم يسألون عني، الأمر الذي أشاع في نفسي الغبطة واستعدت بعض الطمأنينة المفقودة.

من بين هذه الرسائل البريدية الألكترونية وصلتني المشاركة المميزة التالية لذلك سأكتبها في كراستي اليومية.

صدى الحيـــــاة:

يحكى أن أحد الحكماء خرج مع ابنه خارج المدينة ليعرفه على تضاريس الحياة في جو نقي، بعيداً عن صخب المدينة وهمومها، سلك الاثنان وادياً عميقاً تحيط به جبال شاهقة وأثناء سيرهما تعثر الطفل في مشيته سقط على ركبته، صرخ الطفل على إثرها بصوتٍ مرتفع تعبيراً عن ألمه: آه، فإذا به يسمع من أقصى الوادي من يشاطره الألم بنفس الصوت، نسي الطفل الألم وسارع في دهشةٍ سائلاً مصدر الصوت: من أنت؟ فإذا الجواب

يرد عليه سؤاله : من أنت ؟؟

انزعج الطفل من هذا التحدي بالسؤال فرد عليه مؤكداً بل أنا أسألك من أنت؟ ومرة أخرى لا يكون الرد إلا بنفس الجفاء والحدة، بل أنا أسألك من أنت؟

فقد الطفل صوابه بعد أن استثارته المجابهة في الخطاب فصاح غاضباً "أنت جبان" فهل كان الجزاء إلا من جنس العمل وبنفس القوة يجيء الرد، "أنت جبان" أدرك الصغير عندها أنه

بحاجة لأن يتعلم فصلاً جديداً في الحياة من أبيه الذي وقف بجانبه دون أن يتدخل في المشهد الذي كان من إخراج ابنه قبل أن يتمادى في تقاذف الشتائم. تمالك الابن أعصابه وترك المجال لأبيه لإدارة الموقف حتى يتفرغ هو لفهم هذا الدرس .

تعامل الأب بحكمتة مع الحدث، وطلب من ولده أن ينتبه للجواب هذه المرة وصاح في الوادي "إنّي أحبك"

كان الجواب من جنس العمل أيضاً فجاء بنفس نغمة الوقار "إني أحبك "

عجب الشَّاب من تغّير لهجة المجيب ولكن الأب أكمل المساجلة قائلاً "كم أنت رائع" فلم يقلّ الرَّد عن تلك العبارة الراقية، "كم أنت رائع".

ذُهل الطفل مما سمع ولكن لم يفهم سر التحول في الجواب ولذا صمت بعمق لينتظر تفسيراً من أبيه لهذه التجربة الفيزيائية علق الوالد على الواقعة قائلاً:

_"أي بني؛ تسمى هذه الظاهرة في علم الفيزياء بالصدى، لكنها في الواقع هي الحياة بعينها، إن الحياة لا تعطيك إلا بقدر ما تعطيها، ولا تحرمك إلا بمقدار ما تحرم نفسك منها، الحياة مرآة أعمالك وصدى أقوالك إذا أردت أن يحبك أحد فأحب غيرك، وإذا أردت أن يوقرك أحد فوقر غيرك، إذا أردت أن يرحمك أحد فارحم غيرك، وإذا أردت أن يسترك أحد فاستر

غيرك، إذا أردت أن يساعدك الناس فساعد غيرك، وإذا أردت الناس أن يستمعوا إليك ليفهموك فاستمع إليهم لتفهمهم أولاً لا تتوقع من الناس أن يصبروا عليك إلا إذا صبرت عليهم ابتداء أي بني، هذه سنة الله التي تنطبق على شتى مجالات الحياة، وهذا ناموس الكون الذي تجده في كافة تضاريس الحياة، إنّه صدى الحياة، ستجد ما قدمت وستحصد ما زرعت.

السؤال:

متى سينتهي هذا اليوم؟

الساعة السادسة مساءً..

وجوم أمي يطبق على جو البيت المتجهم أصلاً بفعل الأصوات، الصور، وهدير طيور الحديد الكريهة.

تنظر الى والدي، يتبادلان كلمات قليلة، تلومه عيناها، تقسو عليه ببعض التصرفات المرتبكة وغير المناسبة في مثل هذا الوقت، فهي لا تجد مبرراً يمنطق وجودها في هذا المكان بين الركام والجثث والدماء التي تسيل بسخاء لتروي عطش الأرض وحقد المحتلين.

قال لها في الصباح وهو يحملق في الشاشة بغير تركيز ودون سابق حديث، تستطيعين العودة الى الإسكندرية إذا شئتِ.

لم تعلِّق، ومضت بوجومها وشعرها الطويل الى غرفة النوم لتمارس هوايتها الأثيرة في طمر رأسها في اللحاف كالنعامة، معتقدة أنها تستطيع أن تختفى عن أعين الخطر.

أعد القهوة كما تحبها هي "على الريحة" ودلف غرفة النوم، دون أن يغلق الباب، كانت من تحت اللحاف تبكي بصوت مكتوم، عانقها وهدهد خوفها وحيرتها، فهو يعلم بكلّه أنها لنْ تذهب بدونه، وتعلم أكثر، أن مثله لا يترك الوطن، هذا إن تركه في مثل هذه الظروف.

سمعته يعدها بصوت مسموع ربما كي أسمع من مكاني في الصالة بقضاء الصيف بطوله في هواء وبحر الإسكندرية، فهو بحاجة مثلها الى بعض الوقت لمناقشة بعض الأمور مع نفسه.

كان يملك موهبة فريدة في اللعب على المتناقضات وامتصاص الوجع والإختلافات المحفوفة بها حياتنا.

يمتص غضب أمي كما يمتص الإسفنج الماء، فتتحول تكشيرتها الى ضحكة رنانة تطرب لها الطيور وتشرق على إثرها الشمس.

استطاع هذه المرة أن يحصل منها على ابتسامة، فالضحك عادة نسيها البيت وجفت من وجوه أهل غزَّة ، ليحل محله بكاء وسخرية من عبث البشر.

كعادته والدي كلما شاهد مشهداً غرائبياً وما أكثرها هذه الأيام، ينادي أمي باسمها دون أن يغمسها كعادته بالدلال، لكنه بقي يناديني بـــ" عيوش" وأحياناً بـــ"عيوشتي"

هذه المرة كانت سحابة بيضاء من الورق، ترفرف في سماء غزَّة كأنها جيش من الحمام الأبيض، يهاجم القطاع لكنه لا يحمل السلام بل طير الأبابيل، يحمل كره وحقد الغازي وغطرسته.

كانت منشورات تحذر السكان من البقاء أحياء، وإلا سوف يلقون ما لا يدخل السرور الى أمعائهم الفارغة من الطعام والأمن، أو يعكر عليهم استلقاءهم على قارعة الوقت في انتظار المغيب.

ما أكثر غرابة هذا المحتل..

السؤال:

هل تنام النجوم؟

الساعة العاشرة ليلاً ..

لم ينفك والدي عن الإتصال بأخواته الثلاثة المنتشرات على سطح القطاع الفسيح، "عمتى نوال" في "رفح" ، "عمتي رحمة" في "المغازي" وأخيراً أصغر عماتي "تغريد" في جباليا. يحمدن الله ولا يكلفنه ما لا يطيق.

الأسرة في هذه البلد تبقى متماسكة ما بقيت الحياة، أحس أن عماتي ومن قبلهن جدتي "عيشه" عفواً جدتي " أم فتحي" تمتلئ قلوبهن محبة لوالدي، أحياناً يصل هذا الحب الى درجة الهوس، وكان هو بالمقابل لا ينفك عن السؤال عنهن بالهاتف والزيارة والهدايا التي يغدقها عليهن وعلى بيوتهن وأولادهن بترف كانت أمي تلومه على إسرافه ولا يسمع كلامها.

قَطَّع هذا الجنون علاقات الناس مع ما قطع من أجساد وأطراف وأحلام كانت تتكيف مع كل طارىء.

وفي المقابل لا ينفك جرس الهاتف الأرضي يقطع سكون سواد ليل أو عتمة نهار، فضلاً عن الهواتف النقالة لكل من والدي ووالدتي، اتصالات من الأقارب والأصحاب وزملاء العمل، من الناصرة القدس، نابلس، رام الله، جنين، من القاهرة، الإسكندرية، دبي، وعمان.

حاول المتصلون بث شيء من الأمل في نفوسنا، نطرب أحياناً ونسخر من الدنيا أحياناً أخرى، يقول والدي" اللي ايده في المي مش مثل اللّي إيده في النار" يقصد نار غزّة بالضرورة التي أضرمها قدر غامض، وأبقى أهلها يتقلبون في لهيبها كطائر في مقلاة صياده.

السؤال:

كم لتر من الدم تحتاج الأرض لإجراء عملية قيصرية؟

(اليوم السادس)

الخميس 1 كانون الثاني \ يناير – 2009

الساعة العاشرة صباحاً ..

وجود والدي في البيت طوال الوقت، كان يشعرنا بشيء من الأمن والأمان، ففي النهاية ماذا سيفعل إذا ما أطلت علينا من النافذة قذيفة، هل سيصدها بصدره العاري، أو يقرأ عليها ما تيسر كي تعود أدراجها الى حيث أرسها زائر ثقيل.

بالأمس، تهاوى منزل رأيناه بأم أعيننا كتمثال رملي، قال الجيران أن أصحاب المنزل تلقوا مكالمة هاتفية قبل دقائق من قصفه.

في كل مرة نسمع عن قريب أو بعيد تعرض لحادث أو ارتقى شهيداً، يضرب والدي كفاً بكف كأنه يعيد على مسامعه وآذاننا أنه يقوم بما يستطيع لحمايتنا.

– "أين أذهب بكما، لا يوجد مكان آمن على وجه غزَّة، الجميع تحت النار، الجميع مستهدف، ووحده القدر يعلم إلى أي صدر ستتجه الرصاصة القادمة وأي فم نافذة أو سقف منزل ستبتلع القذيفة التالية".

يتبادل الناس الأخبار عن استهداف مدرسة "الفاخورة" التابعة للوكالة، لكن الذهاب الى أيّ مكان يعني شيئاً واحداً، أننا

سنعيش تجربة النزوح القديمة التي أفنت "ستي عيشه" عمرها في تكرار تفاصيلها وحوادثها، تخرجها من زوايا قلبها مغمسة بالقهر والذل تلقي بها في كل وجه كي تبرأ منها ، ولا تبرأ منها أبداً.

بدأت صورة جدتي "أم فتحي" وصورة جدي صحراوي التقاسيم، المعلقتان في جوف الصالة فوق الشاشة الصغيرة مباشرة، تُطِّلان من جوف المجهول، من خلف الحياة، تدفعاني الى التفكير في الموت. تفصلهما ساعة حائط دائرية الشكل؛ فتزيدان من رعب مرور الزمن، تؤكد نظرتهما من خلف الموت الصور البشعة لثلاجات الموت المملوءة بأجساد مارس عليها الموت هوايته القديمة في سلب الأحلام ، في تواطىء صارخ مع المحتل، طيور الحديد كريهة اللون والرائحة والصوت.

بدأت أتذكر الأخطاء التي قمت بها في حياتي بأيامي القليلة، لم أجد في سجلاتي سوى دعابات صغيرة كنا نتندر بها على بعض الزميلات، وربما بعض اللحظات القليلة التي أمضيها في الاستماع الى بعض الأغاني، ولا شيء غير ذلك، ربما ما أشعرني بشيء من الندم والخوف عدم التزامي بكامل الصلوات وعدم ارتدائي الحجاب، لكنني وعدت الله في سري أنني لن أتملص من أداء أية صلاة، وأنني فور انتها الحرب سوف أرتدي الحجاب رغم أنني كنت أستمتع بشعري المتمرد الحالك

كشعر والدي، أستمتع بإرساله على ظهري، لكن بعد اليوم سوف أخفيه.

ما أن يشتد القصف أو يردد الصدى صوت عواء الحرب، حتى ننكمش ثلاثتنا باتجاه الزاوية الآمنة عالية التحصين كما يعتقد والدي، نتكوم ككتلة متماسكة من الحب والخوف والرغبة في الموت كجماعة أو الحياة في جماعة.

السؤال:

هل جدي وجدتي في جنتهما يسمعان أصوات طيور الحديد، ويعرفان تفاصيل ما يجري لنا؟

<u>الساعة الواحدة ظهراً ..</u>

.... كان يا مكان، كان في الغابة ثعلب وأسد وحمار، ومرة شعر ملك الغابة بالجوع وكان معه الثعلب الذي لا يفارقه في حله وترحاله وكأنه رئيس وزرائه.

قال الأسد:

- "يا ثعلب هات لي طعاماً وإلا اضطررت لأكلك.

قال الثعلب:

-"تأكلني!! لا..لا، الحمار موجود سأحضره لك حتى تأكله.

قال الأسد:

– "لا تتأخر".

ذهب الثعلب في زيارة إلى الحمار وقال له:

– إنَّ الأسد يبحث عن ملك آخر للغابة فاذهب معي حتى تتقرب منه.

قال الحمار:

–"هل أنت متأكد يا ثعلب".

قال الثعلب:

–"أنا متأكد". وأخذ الحمار يفكر بالمنصب الذي ينتظره فرحاً بفرصة عمره بل راح يبني شكل وهيئة مملكته.

وصل الثعلب والحمار عند الأسد، وقبل أن يتكلم، قام الأسد وضربه على رأسه فقطع أذنيه، فر الحمار على الفور. وهكذا فشلت الخطة.

قال الأسد:

–" يا ثعلب هات لي الحمار وإلا أكلتك".

قال الثعلب:

–"سأحضرالحمار مرة أخرى، ولكن أرجو أن تقضي عليه بسرعة".

عاد الثعلب للحمار وقال له:

–"صحيح أنكَ حمار ولا تفهم، كيف تترك مجلس ملك الغابة وتضيّع على نفسك هذا المنصب، ألا تريد أن تصبح ملكاً؟" قال الحمار:

–"العب غيرها يا ثعلب؛ تضحك عليّ وتقول أنه يريد أن ينصبني ملكاً، وهو في الواقع يريد أن يأكلني".

قال الثعلب:

–"يا حمار، هذا غير صحيح هو حقاً يريد أن ينصبك ملكاً". قال الحمار:

–"إذن بماذا تفسِّر ضربته لي على رأسي، حتى طارت أذناي؟". قال الثعلب:

–"أنتَ غشيم يا ثعلب، كيف ستتوج وكيف سيركب التاج على رأسك، كان يجب أن تطير أذناك حتى يركب التاج على رأسك". قال الحمار:

–"صدقت يا ثعلب، سأذهب معك إلى الأسد الطيب". رجع الحمار برفقة الثعلب إلى عرين الأسد مره ثانيه.

قال الحمار:

–"يا أسد أنا آسف، فلقد اسأت الظن بك".

قام الأسد من مكانه واقترب من الحمار ثم ضربه مرة ثانيه على مؤخرته فقطع ذيله، ففر الحمار مرة أخرى.

قال الثعلب:

-"أتعبتني يا أسد"، قال الأسد متذمراً:

-"هات لي الحمار وإلا أكلتك". قال الثعلب:

-"حاضر يا ملك الغابة". وهكذا تكون قد فشلت المحاولة الثانية.

رجع الثعلب للحمار وقال:

-"ما مشكلتك يا حمار؟". قال الحمار:

-"أنت كذاب وتضحك علي، فقدت أذناي ثم فقدت ذيلي؛ وأنت لا زلت تدعي أنه يريد أن ينصبني ملكاً، أنت مخادع يا ثعلب". قال الثعلب:

-"يا حمار أنت لا تفكر، قل لي بالله عليك كيف تجلس على كرسي الملك "العرش" وذيلك من تحتك؟". قال الحمار:

-" لم أفكر في هذه ولم تخطر على بالي". قال الثعلب:

-" لهذا ارتأى الأسد ضرورة قطعه". قال الحمار:

-"أنت صادق يا ثعلب، أرجوك خذني عنده لاعتذر منه وحتى نرتب الأمور".

أخذ الثعلب الحمار معه إلى الأسد مرة ثالثة.

قال الحمارللأسد:

-"أنا آسف يا أسد، ومستعد لكل الذي تطلبه مني".

قال الأسد :

-"لا تهتم؛ فهذه مجرد خلاف في وجهات النظر".

قام الأسد وافترس الحمار من رقبته والحمار يصيح

"أين أضع التاج.. أين أضع التاج.. كيف سأجلس على العرش".

عند ذلك لفظ الحمار أنفاسه الأخيرة.

قال الأسد:

-" يا ثعلب، اذهب واسلخ الحمار واحضر لي المخ والكلى والكبد".

أكل الثعلب المخ ورجع ومعه الكلى والكبد. قال الأسد :

-"يا ثعلب أين المخ".

قال الثعلب:

-"يا ملك الغابة لم أجد له مخاً!". قال الأسد:

-"كيف ذلك؟" قال الثعلب:

-"لو كان للحمار مخ لم يرجع لك بعد قطع أذنيه وذيله". قال الأسد:

_ "صدقت يا ثعلب فأنت خير صديق".

أحيانا أكتب بعض المشاركات دون أن أفهم مغزاها البعيد على أمل أن أعيد قراءتها في قابل الأيام وقد ازددت عقلاً وفهماً، لذلك لا أجد لهذه القصة في ذهني الآن ترميزاً خاصاً لكنها القصة القديمة الجديدة بين من يصرّون بعندهم على

تجريب المجرب، وعدم تصديق عيونهم وقلوبهم، حيث تقول لهم بالكلام الصريح وغير الصريح ، ويصرّون على التمترس خلف غبائهم وسذاجة افكارهم القديمة.

السؤال:

ترى من يمثل دور الأسد ودور الثعلب ودور الحمار في غابتنا البشرية هذه؟

(اليوم السابع)

الجمعة 2 كانون الثاني \ يناير – 2009

الساعة التاسعة صباحاً ..

للجمعة طقوس خاصة في بيتنا، تتجدد هذه الطقوس بتجدد الفصول، أعني في الربيع للجمعة برنامج للتسلية يختلف عن جمعة الصيف أو أواخر الخريف. لكنها بقيت على غير العطل كلها تتمتع بقدسيتها الخاصة في نفس والدي ووالدتي.

لكن هذه الجمعة على غير العادة برغم ما تعرضت له غزَّة من أحداث كثيرة في الماضي، كانت هذه الجمعة استثناءً، لم يستيقظ والدي باكراً كعادته لحرق الدخان في الشرفة في وقفته العنيدة الأثيرة في تحدٍ واضح وصريح للبحر الجالس في الجهة المقابلة.

لم يستحم كعادته ويحلق ذقنه ويشذب الشعر المتمرد في شاربه السميك. بل بقي مستلقياً الى جوار أمي من الطرف الآخر، محملقاً في سقف الغرفة، في سوداوية استلهمها من ظلم البشر للبشر.

لم يذهب كعادته لشراء الفول الأثير الى أمي أو "الطعمية" بالمصرية الدارجة. أو شراء الجريدة كي يجلس ويقرأها في الشرفة مولياً ظهره للبحر الظالم.

السؤال:

كم يحتاج العالم من الضحايا كي يتوقف هذا الجنون؟

الساعة الواحدة والنصف ظهراً ..

أعجب لهذا الإصرار الذي تملكه الكائنات البشرية الغزيَّة. ما أن يبدأ نهار جديد، حتى يتجدد الأمل ونزيف الدم، ودمع العيون.

الطيور الحديدية التي يملكها الغزاة، ما تفتأ تقيء أمعاءها الملتهبة وروث عقلها باتجاه بشر يملكون كما يملك الغزاة، دماً ولحماً وأجهزةً تنفسية، يملكون أحلاماً، ويملكون أيضاً أكثر مما يملك غيرهم من الصبر على الظلم والألم.

تعالت أصوات تنادي "الله أكبر" لصلاة الجمعة.

لكن طيور الحديد بغيضة اللون والرائحة لم تستثني حتى المساجد، ودَكَّت صواريخها حتى سقوف بيوت الله، لكن الله موجود في بيته الكبير في الكون وفي كل مكان.

افترش الشبان والشيوخ الأرض، وعلا صوت الخطيب هزيل الجسم قوي الصوت في الجامع القريب من بيتنا، تعالى مكبراً منادياً مناشداً مبتهلاً متذللاً لله، لا لأحد على وجه الأرض سواه، قال كلاماً لا أظن أن القلوب المشغولة قد سمعته، وفي

عجل أقيمت الصلاة، في عجل اصطف الرجال والشباب والأطفال وبعض الملائكة في صلاة ساد فيها جلال الخشوع، مرت الطائرات من فوقهم وهم ساجدون دون أن يسمعوا لها صوتاً.

كانت السماء من فوقهم والبحر من خلفهم، وأنا من النافذة المطلة على الشارع نرقبهم في عُجبٍ وإعجاب.

السؤال:

الشمس مؤنث والقمر مذكر، هل ما بينهما حب أم أكثر من ذلك؟

(اليوم الثامن للجنون)

السبت 3 كانون الثاني \ يناير – 2009

الساعة الثامنة صباحاً ..

استيقظت في منتصف الليل مفزوعة، كانت الغرفة مظلمة تماماً، ولم تزل الصور والألوان التي ردَّدها التلفاز تلح على ذاكرتي، تتردد أصداؤها في الجدران الداخلية لرأسي، وبعضها رُسم على جدران الصالة الخالية من الضوء والأمن.

لم نتمكن في العام الماضي من زيارة جدي وجدتي في "الإسكندرية" بسبب الحصار، أنا لا أفهم معنى الذي يجري، ولماذا يتعرض شعب بأكمله للتجويع، لماذا يحاصر كل هؤلاء الناس ولاي سبب. مرة أخرى لا إجابة سوى الكلمة المطاطة حمّالة الأوجه والمعاني؛ إنَّها السياسة، الأمر الغريب أننا نحن الأفراد من نسكن هذه البيوت، ونسير فوق الأرض من ندفع الثمن الباهض من معاناتنا. والسؤال الأصعب كيف يصمت العالم بأسره على واقع كهذا في عالم مفتوح كعالمنا، كيف يصم الغرب آذانه على معاناتنا.

على كل حال هذا شيء من الأفضل عدم الحديث به فلا أحد يملك أجوبة لهذه الأسئلة، وفي نفس الوقت الجميع يعرف من المسؤول وكيف يمكن لكل هذا أن يزول لكن يبدو أن

للبعض مصلحة في بقاء الحال كما هو، ولتبقى غزة تحت حصارها، وليبقى العالم يتشدق بكلماته الفارغة عن حق العيش بكرامة وحرية، ولتبقى إسرائيل تمارس رجولتها بدافع أمنها.

بالأمس استطعنا أن نأخذ وعداً من والدي أن نذهب في الصيف القادم الى "الإسكندرية" لثلاثة أشهر كاملة، في العطلة الصيفية. بشرط أن يرافقنا لشهر ونصف مدة الإجازة التي تراكمت من العام القادم وإجازة السنة التي تعمد أن لا ينفق منها يوماً واحداً.

يبقى البحر يحافظ على وعوده القديمة ما لم نخلفها نحن، وهذه كلمات والدي التي يرددها كلما قابل بحر الإسكندرية.

الغريب في أمره أنه يميز بين بحر غزة وبحر الإسكندرية، رغم أن الماء واحد والخطر والغموض واحد، علاقته ببحر "الإسكندرية" مصبوغة بمسحة رومانسية وحنين بعيد، لا يعاتبه بل يكون دائما ممتناً وشاكراً تماماً كأنه ضيف خفيف الظل حل على البحر. وهو مع بحر غزة كأنه من أهل البيت، يعانده يتصرف بجلافة معه؛ يأتي على ذكره بما لا يسره، يحبه ، يبغضه، يقدم له الهدايا، يقاطعه أحياناً ويمتنع عن لقائه.

السؤال:

أين يمكن أن أجد صديقاً حقيقياً؟

(اليوم التاسع للجنون)

الأحد 4 كانون الثاني \ يناير – 2009

الساعة الواحدة ظهراً ..

كان هناك رجلٌ يعبر جسرا على إحدى الأنهار بابنته الصغيرة وكان خائفا عليها من السقوط في النهر، فقال لابنته:

– "ابنتي تمسكي في يدي كي لا تسقطي". فأجابت الفتاة:

– "لا يا أبي تمسك أنت في يدي". سأل الأب متعجبا.

– "وهل هناك فرق بين أن تمسكي يدي أو أن أمسك يدك". أجابت الفتاة:

– "نعم يا أبي، فإن أمسكت أنا يدك وحدث لي شيء فربما لن أستطيع التمسك جيداً وسوف أترك يدك، ولكن إن امسكت أنت يدي فأنا متأكدة من أنه مها حدث فلن تترك يدي أبداً".

السؤال:

هل سنجد يوماً من يمسك بيدنا للعبور نحو الحرية؟

الساعة السابعة مساءً ..

في الواقع لم يكن منزلنا معتاداً على هذا النوع من إدمان مشاهدة الشاشة الصغيرة، فلكل منا هواياته الخاصة التي

يمارسها في أوقات الفراغ القليلة والمتاحة التي يقتنصها أثناء أداء الواجبات كل حسب موقعه.

كان والدي يعود في السادسة مساءً، يتناول العشاء وهي بالنسبة له وجبة رئيسية، يبدأ بعدها بمراجعة أوراقه وأرقامه التي يحضرها غالباً الى البيت، يستلقي على الصوفة في صدر الصالة ليقرأ الجريدة، أو كتاباً يتناوله من مكتبة المنزل التي تضم الكثير من الكتب في شتى الموضوعات.

أما أمي فبعد عودتها من المدرسة قرابة الثالثة ظهراً، تلقي بجسدها في حضن السرير وترفع قدميها في زاوية حادة باتجاه السقف كي تمنح شرايينها الفرصة للاسترخاء، تبقى على حالها قرابة الساعة، لتشرع بعدها في إعداد الوجبة الرئيسية التي تجمعنا، تعزف أحياناً على البيانو النائم جوار طاولة السفرة، لتضفي على المنزل جواً رومنسياً وشاعرياً يشي بالفرح والمحبة.

نتبادل النكات، الأفكار وأحياناً يقرأ أحدنا فقرة ما بصوت مرتفع كي تسمع حتى الجدران.

في الإجازات الطويلة يمتد المشهد الشاعري الى الألوان والقماش والرسم، حيث يجلس والدي في الشرفة المطلة على البحر البعيد الكبير، يرسم أمي أحياناً بصور متعدده، تارة سريالية وأخرى واقعية، تجريدية، انطباعية، تكعيبية ووحشية

يرسمها ويرسم البحر، حيث كان يردد أنها هي والبحر وجهان لعملة واحدة، يحبهما يتغزل بهما، تزداد هي دلالاً وعذوبة وصبراً عليه وعلى غزته وبحره.

اليوم يصادف عيد ميلادي، لكنني لم أكن بأي مزاج للحديث عن هذا الموضوع.

مَرَّ كأنه يوم عادي، على عجل وبخجل تبادل والدي معي التهنئة بقبلة واحدة طبعها على جبيني، ومضى بعيداً فيما أمي ذكَّرها التاريخ بدمعها الذي ذرفت منه الكثير طوال الأيام وهذا اليوم لم تقل شيئاً وضمتني برعب الى صدرها.

إذ يصعب على المرء أن يفكر بالمناسبات المرتبطة بالزمن كعيد الميلاد؛ في جو مشحون وملبد وخالي تماماً من الفرح. وهو ينظر برعب الى الغد فاغراً فمه لالتهام تفاصيل الحياة الصغيرة. فالماضي يصبح بلا معنى في غياب المستقبل.

السؤال:

أين تعيش ذكرياتنا؟ وأين تذهب بعد موتنا؟

الساعة الحادية عشرة والنصف ليلاً ..

في العاشرة مساءً أقفل التلفاز والهاتف النقال، وجلس الى جواري على غير العادة ضمني وقالها هذه المرة بملىء الفم والوجدان.

" كل عام وأنت حبيبتي"

وشاهدت في الزوايا البعيدة لعينيه القديمتين شبح دمعة، تراوح الزوايا، تجاهده ويجاهدها. لكنه ابتلعها في حركة يتقنها رجل مثله أدمن دفن أفكاره في الطبقات السفلية لروحه العذبة، ربما ليقولها في لوحة ترسمها الألوان في وقت فراغ يأتي ربما، وربما يبقي عليه الغزاة حلماً عزيزاً الى الأبد.

"بدك قصة تكتبيها في دفتر يومياتك"

قال: بافتعال لهدوء غير موجود، في مساء يقتل هدوءة ايقاع عشوائي للقصف وهدير طيور الحديد.

التصقت به أكثر، وتذكرت طفولتي المدلَّلة التي تمرغت روحي وجسدي في أرضها على يديه.

"هل تفضلين السَّماع ومن ثم تكتبينها بطريقتك أم ماذا"

قال مرة أخرى لكسب مزيد الوقت كي يبتلع غصة قلبه ويتهيأ لتلاوة أحد أناشيد الفرح القديمة، في محاولة لقتل العتمة وصمت البحر وعناده.

التصقت به أكثر ففهم أنني سأكتبها فقط إذا أعجبتني.

قال:

إشتكت ابنة لأبيها مصاعب الحياة، وقالت: انها لا تعرف ماذا تفعل لمواجهتها، فهي تعبت من المعاناة والمكابدة، فما أن تُحل مشكلة حتى تظهر مشكلة أخرى.

اصطحبها والدها إلى المطبخ، ملأ ثلاث أوانٍ بالماء ووضعها على نار حامية، وسرعان ما أخذ الماء يغلي في الأواني الثلاث، وضع الأب في الإناء الأول جزرة، وفي الثاني بيضة ووضع بعض البُن في الإناء الثالث، وأخذ ينتظر أن تنضج وهو صامت تماما.

نفذ صبر الفتاة، وهي حائرة لا تدري ماذا يريد والدها، انتظر الأب بضع دقائق ، ثم أطفأ النار ، ثم أخذ الجزرة ووضعها في وعاء، وأخذ البيضة ووضعا في وعاء آخر ، وأخذ البن المغلي ووضعه في وعاء ثالث.

ثم نظر إلى ابنته وقال: ماذا ترين يا؟ وضحك بطرف فمه دون أن يسمح لي برؤية باقي حواس وجهه.

– "جزرة وبيضة وبن".

طلب منها أن تتحسس الجزرة، فلاحظت أنها أصبحت ناضجة ورخوة. ثم طلب منها أن تنزع قشرة البيضة، فلاحظت أن البيضة باتت صلبة، ثم طلب منها أن ترشف بعض القهوة،

فابتسمت الفتاة عندما ذاقت نكهة القهوة الغنية، سألت الفتاة: ولكن ماذا يعني هذا يا أبي؟

فقال: اعلمي يا "عيّوش" أن كلاً من الجزرة والبيضة والبُن واجه الخصم نفسه، وهو المياه المغلية، لكن كلا منها تفاعل معه على نحو مختلف. لقد كان الجزر قوياً وصلباً، ولكنه ما لبث أن تراخى وضعف بعد تعرضه للمياه المغلية.

أما البيضة فقد كانت قشرتها الخارجية تحمي سائلها الداخلي، لكن هذا الداخل ما لبث أن تصلب عند تعرضه للمياه المغلية.

أما البن المطحون فقد كان رد فعله مختلفاً تماماً، إذ أنه تمكن من تغيير الماء نفسه

وماذا عنك أنتِ ...؟

هل أنت الجزرة التي تبدو صلبة، ولكنها عندما تعرضت للصعوبات أصبحت رخوة وطرية وفقدت قوتها؟ أم أنك البيضة، ذات القلب الرخو، ولكنه إذا ما واجه المشاكل يصبح قويا وصلبا؟ قد تبدو قشرتك لا تزال كما هي ، ولكنك تغيرت من الداخل، فبات قلبك قاسيا ومفعما بالمرارة! أم أنك مثل البن المطحون، الذي يغير الماء الساخن، وهو مصدر للألم بحيث يجعله ذا طعم أفضل؟! فإذا كنت مثل البن المطحون، فإنك

تجعلين الأشياء من حولك أفضل إذا ما بلغ الوضع من حولك الحالة القصوى من السوء.

فكري يا "عائشة" وقالها هذه المرة بصلابة وحزم دون أن يغمرها بالدلال كعادته.

فكري كيف تتعاملين مع المصاعب، هل أنت جزرة أم بيضة أم حبة بن مطحونة؟

صمتُ بعدها طويلاً وبقيت التمس الدفيء المنبعث من روحه وجسده متأملاً معانيها.

نام هو بعدها أو هكذا يدّعي عندما يضع نظارته الطبية فوق رأسه ويغلق نوافذ وجهه، دون أن ندري هل نام أم ذهب الى عالمه البعيد.

السؤال:

هل الليل له عيون يبكيها؟

هل تسمعون مثلي بكاء المساء ؟

(اليوم العاشر للجنون)

الأثنين 5 كانون الثاني \ يناير – 2009

الساعة العاشرة صباحاً ..

أفكر بأمي التي لا ينفك هاتفها الخلوي عن الرنين وفي كل مرة يأتي السؤال من الإسكندرية، حيث الأهل والحضن الدافىء.

أشعر أحياناً بالعجز اتجاهها؛ لأنني لا أستطيع عمل أي شيء يمكن أن يخفف من الرعب وغيبة الأمل الذي تحسه؛ وهذه المرة غير المرات السابقة، ولعل وسائل الإعلام ساهمت بشكل كبير في تعظيم هذا الرعب الى درجة الإحساس بدنو الأجل، كانت تنتابها أفكار سوداوية كلما شاهدت أو سمعت عويل النساء أو عبر بصرها آثار الدمار، أو جثث الموتى في المشافي.

يحاول أبي التخفيف عنها ولكن عبثاً.

عاد أبي من مصر في العام 1995 برفقة زوجته "المصرية" لأول مرة بعد مقاطعة والده له بسبب خروجه عن إرادته والزواج بأمي، ليس رفضاً لأمي بذاتها ولكن لمبدأ الخروج عن إرادة الأب. كان يعلم أبي كما يقول، أن والده والمخيم الذي يسكنه لن يحتمل قصة الحب التي جمعته بطالبة الموسيقى، والتي ظنَّ جدي في حينها أنها مشروع راقصة، أو

مقاولة أفراح، وهذه كلمات والدي نقلاً عن والده في أحاديثهم التي سبقت وتلت الزواج، الأمر الذي أسفر عن قطيعة بين الوالد والولد بسبب طالبة الموسيقى الإسكندرانية التي هي أمي.

هذه القطيعة انتهت بالنهايات الحتمية التي يرسمها القدر بموت أو حياة. مات جدي، وبقيت جدتي "أم فتحي" تلح على وليدها الوحيد بالعودة الى القطاع، فالوقت قد حان للوطن بعد عودة عرفات.

عاد وبرفقته أمي وكان قد مضى على زواجهما سبع سنوات، وفقط بعد أن تولت جدّتي أمر الإنجاب والعلاج والوصفات تمكن الزوجان من الإنجاب، حيث كانت السنة والنصف التي عاشها الزوجان في القطاع من أصعب الأوقات، كثرت المطالبة لوالدي بالإنجاب ووصل الأمر بعماتي الثلاثة أن لوّحن لوالدي ولأمي من بعيد بضرورة الزواج من أخرى، إذ ليس من المعقول أن ينقطع نسل الأسرة، سيّما أنه الذكر الوحيد القادر على إدامة جريان دم العائلة بانجاب الصبية.

أراد ألله كما تقول جدتي وإرادة الله نافذة؛ فجئت أنا الى الدنيا لتهدأ بعدها النفوس.

لكن بقيت مخلفات كثيرة تعتمل في النفوس تظهر من حين لأخر على السطح فتعكر الصفو.

لكن والدي –وكما قال لي مرة– استطاع أن يدير المعركة الصامته بذكاء نادر وصبر لا يهدأ، كي يحافظ على حب "الإسكندرانية" التي ملأت قلبه عن آخره بحبها.

وبقيت تلك الموضوعات سيفاً مسلطاً على رقبته من طرفين، جدتي وعماتي من جهة، وأمي والموسيقى التي تحبها وتدرسها من جهة أخرى.

حاولت أمي اقناعة بالهرب بالحب الى مصر أو أي مكان على وجه الأرض، فيما ترى فيه جدتي "أم فتحي" آخر الرجاء في الدنيا، عمَّاتي يتشبثن به كحبل نجاة أرسلته السماء ولامست أطرافه الأرض، يعاندن بوجوده أزواجهن متى اشتدت الحاجة خاصة بعد غياب الجد الكبير، وهنا تحتاج المرأة الى سند من أب أو أخ حتى ينمو صغارها لتشد ظهرها بهم في مقابل مماحكة الجيران والأقارب وحتى الأزواج.

عاش هو على أطراف هذه المعادلة، تتجاذبه أطراف متناقضة، مبقياً على هامش رقيق من التوازن كي لا ينفرط العقد الهش، لكن كل ذلك كان على حساب أعصابه وأفكار رأسه التي كان يمكن لها أن تنجب الكثير من التغيير والإبداع لو أتيح لها المجال كما كان يردد في أوقات الصفو القليلة وهو مسند رأسه الى حافة الشرفة مولياً ظهره للبحر.

لا أدري لماذا أكتب هذه الأشياء عن والدي ووالدتي وعماتي وحتى جدتي، لكنني أجد بعض المتعة وربما التسلية في كتابة أي شيء في الأوقات المملة والطويلة التي نقضيها في البيت نمارس عادة الإنتظار لشيء ماــ يمكن أن يأتي في أية لحظة، أو أن لا يأتي البته.

طوال السنوات الثلاثة الماضية التي بدأت فيها بكتابة الملاحظات أو المذكرات والتي لم أترك يوماً واحداً دون أن أكتب شيئاً، لم أتطرق لهذه الموضوعات بتاتاً فماذا أكتب عن أمي أو أبي سوى بعض الأحداث العابرة كالمرض أو استقبال الأعياد أو السفر، ما خلا ذلك كنت أكتب أحداثي الخاصة الصغيرة، تدوين الكثير الكثير من أبيات الشعر والأحاديث النبوية والحكم والقصص الموجزة المعبرة، وفيما بعد بعض المشاركات التي تصلني عبر البريد الإلكتروني عندما لا أجد ما أكتبه في الأيام الرتيبة الكثيرة التي عشناها في سالف الأيام وتبدو اليوم كأنها حلماً بعيداً بعيداً..

السؤال:

ما الفرق بين أن يكون المولود ذكراً أم أنثى؟

الساعة الواحدة ظهراً ..

في أيام الرخاء النسبية التي سبقت هذه المحرقة المجنونة، كان والدي يمارس بعض هواياته القديمة في الطبخ السريع التي تعلمها أيام الدراسة، فيعد لنا بعض الأطباق يمارس بعض السخاء ليغطي عيوبه أو أخطاءه الصغيرة في طهو الطعام، يعتبر تدبير الطعام في المنزل مهمة مقدسة تتولاها أمي، لكنها أصبحت أمراً مضجراً ومستحيلاً في ظل غياب المواد التموينية من الأسواق.

في الواقع كنا نسمع عن معاناة الناس في الحصول على المواد التموينية الضرورية لاستمرار الحياة طوال فترة الحصار، لكننا لم نشعر بذلك نحن لوفرة المال، ولقلة عدد أفراد الأسرة التي يعد استهلاكنا متواضعاً مقابل العائلات كثيرة الأولاد.

إعداد الطعام أثناء العدوان يعد معجزة تتجدد كل يوم، وجبة الصباح تعتبر الأسهل، ويقتصر العشاء على "سندويشات تعد على عجل من الزيت والزعتر أو الجبنة الصفراء أو حتى الشاي مع بعض الكعك.

تتبت مشكلة إعداد الوجبة الرئيسية، فلم يكن أحد منا مستعداً لهذا المنع من الحياة إلا بالقدر الذي تستوجبة متطلبات كل اسرة حسب عادات الشراء التي تمارسها.

كان والدي يشتري احتياجات الأسرة كل يوم خميس بما يكفي لأسبوع كامل، ولحسن الحظ؛ كان يوم الخميس الذي سبق العدوان، قد أفلح في الحصول على كميات أكبر من الخضار والخبز بحدس غيوم الحرب التي كانت تحوم في سماء القطاع، فضلاً عن شراء بعض الحبوب الجافة، لكن يبقى غاز الطبخ هو معضلة الجميع، يتوسط والدي عند الكثير من معارفة ويضطر أحياناً الى دفع سعر مضاعف للحصول على المواد الآّزمة للحياة، لكن يتساءل في جوفه وعلى مسمعنا أحياناً عن حال العوائل المستورة التي لا تملك المال، ولا العمل وتملك أفواها وشهية، يتساءل عن صبية بعدد النجوم يحبون الحياة وملذاتها ولا يملك المعيل المال اللازم لإشباعها.

مساء هذا اليوم ينتهي عاشر أيام الجنون التي تمارسه طيور الحديد، ورجال يرتدون الخوذ يقذفون البشر والحجر بالنار متناسين أن الله واحد، وأن أولادهم ليست بأفضل ولا أعز عندهم من أطفال غزّة على أهلهم.

تبرمت أمي بالأمس من نفاذ الوقود الذي يبقي أعضاء أجسادنا تعمل برغم تعطل الأعضاء اللازمة للإحساس بالأمن.

يصمت، ويزداد الضغط الذي أحسه يتحول في عينية الى جمر ملتهب، تطالبه أمي بالأمن والطعام كأنها موجودة في كوكب آخر ولم تطأ قدماها جسد الأرض الملتهب.

يصمت، يصبر، يزدرد ريقه، ويزداد شرهه لدخانه الذي يحتفظ منه بكميات تفوق الخيال، يقول "أستطيع الإستغناء عن الهواء لكن عن الدخان لا"، ويمتص السُّم غير عابىء بالقتل البطيء الذي يمارسه على جسده المثقل بالهموم وأحلام لا تفتأ طيور الحديد السماوية تدك حصونها مع كل صوت يخرج في البعيد، أو عمود دخان ينتصب كمارد كريه في عناق حميمي مع الموت وتواطئ مسبق الإعداد لإزهاق الأحلام وأرواح البشر.

نأكل ما تتفتق عنه قريحة "الإسكندرانية" أمي، وفي كل مرة تتحفنا بشيء تبتكره من مخيلتها الخصبة، تطهوه بنار قلبها المشتعلة بالحب والخوف ورعب الفراق.

نأكل بكميات قليلة دون لذة أو رغبة، ولا ندري، من يأكل من.

السؤال:

هل يخاف من أيقن بعمره المكتوب؟

(اليوم الحادي عشر للجنون)
الثلاثاء 6 كانون الثاني يناير – 2009

الساعة التاسعة والنصف صباحاً ..

طلب مني والدي أن يكتب شيئاً في دفتري خطر بباله بعد مرور خمسة عشر يوماً من بدأ الجنون. اعتبرت طلبه هذا شرفاً كبيراً واعترافاً مبطناً بالإعجاب، وأكد لي بطلبه هذا أنها لحظات هامة وتاريخية، يمر بها عقلي وجسدي ولا بد ستترك آثارها المباشرة على جسد غزَّة وأهلها، وبشكل غير مباشر على جسد الأرض.

كتب بخطه الجميل:

"عيوش" حبيبتي، أحسدك على صبرك الذي لا أملكه، أحسدك على عمرك الصغير الذي لن أملكه، وودت لو تعود الدنيا الى الوراء لأخترت أمك مرة أخرى واخترت الوطن كل مرة، ولعدلت عن الكثير من المواقف التي تبين لي فيما بعد أنها تحتاج الى مزيد من التفكير، أخاف من الهواء أن يمس خصلات شعرك في عجل، أتمنى لك مستقبلاً باهراً، يخلو من كل مكروه.

عندما أقرأ كلماتك أسمع صدى صوتي، أرى انعكاس صورتي فيها، لا تتخلي عن كتابة مذكراتك، وأعدك إن بقيت

الدنيا وبقينا أحياء أنني سأرسلها لصديق لي يعمل في الصحافة كي يرتبها يشذبها ويصدرها في كتاب لأنها ستكون شاهداً حصرياً من طفلة أكملت لتوها السادسة عشرة من عمرها، وتحمل فيما تحمل أحاسيس ومشاعر حقيقية صادقة، وأكثر من ذلك خوفاً طازجاً تجسده يوماً بيوم، كلماتك حارة متلونة بالدم مكسوة بالخوف، مضمخة بالأفكار المشوشة ويتخللها رائحة البارود، هي ليست كلمات شاردة باردة يكتبها شاعر أو كاتب في غرفة نومه أو مكتبه الوثير.

أرجو أن تسمحي لي بهذه الخاطرة التي تلح على رأسي ولا أجد الحماسة ولا الرغبة في كتابة أية مذكرات أو أفكار أو انطباعات ولا حتى رسم لوحة تعبر عن الحدث، وأعدك أنني لن أعود للرسم ولا للألوان ما دام العالم يمارس عنترياته تارة وكرمه تاره وعِنْدَه تاره في مواجهة عذاباتنا ودم أبنائنا.

في الواقع لم أنفق من وقتي في الجلوس الى الشاشة الصغيرة طوال عمري، ما أنفقته في الأيام الماضية، محملقاً محدقاً، باحثاً متأملاً، محاولاً قراءة السطور، سماع الأصوات تتبع الصور، معالجة درجات الألوان، قراءة ما بين السطور وخلف الحدود، وبين الأحرف وفي ثنايا النقاط، مستخدماً مهاراتي لمعرفة ما يختبىء خلف الباء، يتوارى تحت الميم، تستره السين، تفضحه القاف، تعري سوءته الكاف، وتقول ما لا

يقال العين والغين. دون أن يتمكن أصحاب ربطات العنق الثرية على اختلاف لغاتهم ومصالحهم ومواهبهم، من إيقاف "الرصاص المصبوب" ولا حتى الحليب المسكوب على رؤوسنا.

تنفجر قذيفة في الشارع، يرتفع عمود دخان في الأفق، تُنظَّم عروضاً نارية في السماء كأنها أعراس العام الجديد، يسيل دم امرأة على وجهها بقايا حسن ممزوج بالرعب، وجوه مسلوخة لنساء، أطفال معصوبة عيونهم مضمدة أطرافهم، رجال قاءت بطونهم أحشائها، نساء يعزُّ عليهن كشف دموع عيونهن وحزنهن للمارة، رجال يَردّون على أسئلة الصحافة الباردة ببرود مفتعل، على البيت الذي دكّته "طيور الحديد" _كما وصفتها_ دون أن يتمكن صاحبها من سداد ثمنه، شيوخ يغالبون دمعهم في الشوارع، تفاجئهم الكميرا، يُفض رباط دمعهم في الشارع بجرأة سَبق صحفي يطمح حامل الكاميرا الى تتويج أو مدالية على شرف الجرح، يبكي الرجال الرجال، ولا غير ذلك يبكي الرجال الشجر التي اقتلعت من بيتها ولا يبكي الرجال غير ذلك، ولا تنفك الكميرا المجنونة من مطاردة نزيز الجرح، انسكاب الدمع، صراخ القلب، لينقل للعالم جرائم المحتل، وينقل أيضاً تسلية حية باللحم الطازج تفوق في إثارتها أفلام الرعب الأمريكية بكل تقنيات التكنولوجيا المستخدمة.

أعمدة تتكىء على جنباتها في استراحة محارب، جدران متهتكة كانت تأوي بداخلها رجالاً ونساءً يعمر قلوبهم حب الحياة ورغبة فطرية في البقاء، كراسي وكنب ممزقة الأطراف والبطن مهملة على جوانب الطرقات، طائرات حديثة تستجمع قوتها في إفراغ روثها على رؤوس البيوت بأهلها، حضارة تمارس آخر ابداعاتها على اللحم الحي، جنود تركوا قلوبهم في حجر أمهاتهم، يلهون بالرصاص الحي، يتبارون فيما بينهم من يصيب قلب عذراء تسرح شعرها على الشرفة، يتمايلون من ثقل خطاياهم، مراسلون أثقل القذى جفونهم، وأطبق النعاس على قلوبهم، قاده يتبارون في اصطياد السمك الميت في مياه المستنقع الآسن، وزراء يتكوّمون كقدر حول أنفسهم في مجلس الأمن، ينقحون نصوص المبادرات تقديماً وتأخيراً ليرضى الجميع، فالبعض لا يحب حرف "الفاء" وآخر بينه وبين "العين" ثأر قديم، والبعض يتحسسون الى درجة المرض من أل التعريف.

مثقفون، شيوخ، قساوسه، حاخامات، علمانيون، ماركسيون، مطربون، قادة رأي ينبتون في وسع الشاشة ليقولوا، يصرخوا، ينادوا يستجدوا، يشجبوا يلوموا في رتابة قاتله، ولم يستطع كل هؤلاء من منع أو وقف هدير "طيور الحديد" في السماء من أن تعود لتلقي ما بجوفها وتغادر في فرح لتعود من

جديد وتقول كلاماً له صوت مرعب وينقل بالترجمة الفورية الى ألوان، دخان، جثث، جرحى، ثكلى، وقلوب ساكنه في بيوتها تظن أن دورها ربما في الوجبة التالية لدوي القصف أو في الغزوة التالية لـــ "طيور الحديد" الفرحة بمهاراتها وحدّة عيونها.

وبعد ذلك وفي أثنائه، تطل علينا مذيعات العرب بآخر قصات الشعر والصبغات وبأحدث ما تفتقت عنه دور الأزياء في العالم المتحضر. كل ذلك في تناقض صارخ مع الدم والروث والدمار والبؤس والجوع والخوف الذي يعانيه "غزازوة" العصر الحديث، في مقارنة غرائبية مع "غزازوة" ما قبل التاريخ.

تكون قد وصلت الى درجة عالية من الإحساس والتعاطف الإنساني، يراودك هاجس بالخروج من جلدك، تحدثك نفسك بتحطيم الهاتف النقال القادم من دول الحضارة، تود لو تنهض باتجاه الجنون، فيطل عليك إعلان لمنتج أمريكي، تتلوى فيه انوثة تبيع نفسها للحضارة، ويذهب جزء من ريعه لإستدامة ماكينة الحرب المجنونة، فيبرد الحزن ويتحول الى رغبة استهلاكية تتوج بوجبة دسمه ينام بعدها القلب، ليتجدد المسلسل في اليوم التالي."

أرجو المعذرة "عيوشتي"، ربما قد خرجت عن سياق مذكراتك البريئة هذه، أشكرك على إتاحة الفرصة لي كي أنفِّس عن نفسي المضطرمة بنار الحقد والغضب والخوف.

أرجو أن تسمحي لي باقتراح السؤال هذه المرة.

السؤال:

من القائل: الفلسطيني الجيد هو الفلسطيني الميت؟

<u>الساعة الثانية عشرة ظهراً..</u>

بعد أن قرأت ما كتبه والدي، ذهلت لاسلوبه، بل أحسست بأنني سأحتاج لسنوات كثيرة كي أتمكن من الكتابة بطريقته الرائعة تلك.

لكن ما يشغل ذهني بصراحة، تدخلات والدي الكثيرة في مذكراتي، فأنا أريدها خالصة لي، لتنقل مشاعري وانطباعاتي وهمومي الخاصة لا همومه هو.

فلا أريده أن يؤثر في افكاري أكثر من تأثيره الكبير في اهتماماتي، بل أنني أحس أنني أنقل رؤيته بعد أن أقتنع بها.

السؤال:

هل للكلمات حواف حاده يمكن أن تجرح؟

الساعة السادسة مساءً ..

ما خمنتّه كان صحيحاً، فبعد تجربته السابقة في الكتابة، بدأ والدي يضع أنفه في ما أكتب وقد أعجبته الفكرة وأحس بشيء من الطمأنينة بعدها، حتى أنه بات يصطادني أثناء الكتابة ويملي علي بعض أفكارة ومشاهداته، التي أجدها في محلها وتفي بالموقف.

المرأة التي نقلت صورتها الشاشة، تقول كلاماً يعجز عنه طوال القامة الجالسون مواجهتها هذه الساعة يأكلون "اللب" يشربون الشاي يعانقون أبناءهم وفي الليل زوجاتهم، قالت:

–"سنأكل التراب، نعجن الخبز بماء وملح عيوننا، اليهود عندهم طائراتهم ودباباتهم، إحنا عندنا الله".

استوقفتنا صورتها أنا وأبي على السواء، لا لما تقول فهذا نسمعه من الجيران والأقارب ومن يسيرون بيننا في الشارع، ما استقوفنا هو الشبه المذهل بينها وبين المرحومة "ستي عيشه أم فتحي".

أشتاق لجدتي "أم فتحي"، برغم إرتباك مشاعري وتشوشها اتجاهها، لكنني بالتأكيد أحبها واشتاق لها وأتذكرها، فقد عرفت الموت لأول مرة من خلال جسدها الذي شاهدته ممدداً في بيتنا هذا، في السنة الماضية وربما في نفس الشهر لا أذكر، عندما

عاد بها والدي من "شِفا غزَّة" بعد أن أعياها المرض، وأكل السكري قدمها اليمنى، طوال عام من زيارة الأطباء والبيات في المشفى، بعد اشتداد المرض وندرت الأدوية.

أشتاق لها وأحبها، بل أحياناً أفكر في المكان الذي تنام فيه الآن، أفكر في الجنة التي قال أبي أنها ذاهبة اليها لا محالة، لأنها ببساطة كما قال: "لم تؤذ أحداً في حياتها كلها، وصبرت على قسوة رجل الصحراء الذي هو زوجها، لم تفارق إبتسامتها وجهها ولا سبحتها يدها".

تكيَّفت جدتي مع وجودي على مضض، لكنها لم تبخل بعطفها بل غمرتني بحبها الكبير، كانت تريد صبياً بدلاً مني، ولا تمل من إرسال الإشارات والتعليقات المبطنة من حين لآخر. كانت تريد "عبد المعطي" على اسم زوجها، وجاءت "عيشه" على اسمها.

سألت أمي مرة لماذا اختاروا لي أسم "عائشه" خاصة بعد سماع بعض التعليقات من بنات المدرسة، هذه "داليا" وتلك "لمى"، وأخريات "سونيا وسالي، ونانسي، حتى دعاء وإسراء ووفاء،" لماذا "عائشه" أشارت الى والدي يومها المستلقي على الأريكة يقرأ كتاباً.

"عائشه" هو الأسم الذي حملته قبل وجودي على هذه الأرض لأنه أسم جدتي "أم فتحي"، قاومت أمي هذه الرغبة التي

طلبتها جدتي بلسانها وأصبحت قدراً كما قال والدي بإصرار عمّاتي، ولو كنتُ ولداً لكان اسمي "عبد المعطي" على أسم جدي.

عانيت قليلاً من تعليقات البنات وأولاد الجيران لكنني أحببت هذا الأسم فيما بعد خاصة عندما يناديني والدي "عيوش" وأحياناً يتندر ويناديني "علّوش" عندما يكون في حالة مزاجية غير مستقره أو يريد أن يمزج بين الدلع والرغبة في توجيه رسالة ما.

السؤال:

ما تعريف الماضي ؟

عرّف ماضيك وتخلص منه؟

الساعة العاشرة ليلاً ..

شاهدت قبل الغروب حصاناً أشهب أشهل، يهيم على وجهه بين الأزقة وعرض الشارع، كمن فقد بيته وأهله وطريق عودته.

الحصان الحائر، ذكرنّي بحصان جدي الذي لم أشاهده، كلا ولم أشاهد جدي إلا من خلال صورته المعلقة في صدر

البيت بألوان حارة، كما تقول أمي، ببشرته اللامعة المحمصه بشمس الصحراء.

كانت تحدثني جدتي عن الحصان كأنه ولد من أولادها، له تفاصيل حياة، له ولادة وموت ونزوات مراهقة.

"أنا يا ستي أصلي من حيفا وسيدك أبو فتحي من النقب، هَجَّرونا الظّلام من ديارنا، في ليلة ما فيا ضو قمر"

تقول، وتشير بيدها كل مرة بإتجاه مغاير في إحساس مشوه بالإتجاهات.

حصان جدي بقي ما أبقاه الله وقتله اليهود في ليل مظلم، يصر رجل الصحراء أن يبقيه أمام البيت كبدو الصحراء، مسروجاً الى جوار معلفه ووعاء شربه.

قال والدي أن والده برغم مغادرته للصحراء من طفولته وتنقله بين الريف والمدينة وفيما بعد المخيم، بقي يحن الى جذوره الصحراوية، يعشق التحديق في السماء، يذبح أحد أولاده لقراء عابر سبيل إذا لم يجد ما يذبحه، ويصر حتى نخاع عظامه الإبقاء على الفرس جاهزة لرد هجوم أو طلب عاجل لغزو قبائل الجوار.

في البداية أحضر مهرة من البلاد وقتلها اليهود، واستبدلها بحفيد يعود بتسلسل نسبه الى سلالة من الجياد تسكن النقب، يعدو بكل قوته وعنده وجفاف عقله اتجاه الغدر والذل وخون

الصديق، يعدو على امتداد الشاطي كمن يسابق الموج او سُحب السماء، وعندما ينهكه لهاثه ويهتز الحصان أسفله تعباً، يركنه باتجاه البحر، يخلع ملابسه الثقيله ويلقي بنفسه في حضن البحر، يستحم ويغسل تعب الحصان، يدخن لفافة، يتأمل الله في السماء ويعود إلى الخيبة في المخيم الى مهنته في إصلاح الجديدة في خياطة وترميم أحذية أهل المخيم.

بدأت أفكر جدياً في كتابة قصص قصيرة، فهذه الأحداث والأحاديث سمعتها الف مرة ويزيد وفي أكثر من رواية، لكنني أسردها بطريقة مغايرة تماماً، لا أعرف من أين تأتي الكلمات، كيف تصطف ومن أين تنبع، أم أنها المعاناة التي تفرض نفسها وخبزها وماء عجينها.

أم أنني سأعود بعد زوال هذه الغمة الى رتابة الحياة الخالية من الإبداع، كمثل باقي البشر.

على الأقل، ما زالت هذه الكتابه وهذه التذكارات والانطباعات تسلّيني وتخفف من رعب القصف وغيبة الأمل.

لا أدري هل سأنسخ هذه الأوراق الى مفكرة العام الجديد أم ابقيها على الكراسة لتحمل فيما تحمل مع الكلمات، رائحة البارود الممتزج بهواء الجو، وأصوات القذائف التي تحصد جسد غزَّة النبيل بلا رحمة.

أضع أحياناً بعض العلامات على الورق كي لا أنفك عن تذكارها وتذكار أدق دقائقها، بالأمس قام والدي بثقب الورقة بزهر سيجارته المتورد، وأمي وضعت علامة من أحمر شفاهها على الورقة كتذكار بدل أن تضعها على شفتيها.

السؤال:

هل التحديق مباشرة في قرص الشمس مستحيل؟

(اليوم الثاني عشر للجنون)

الثلاثاء الأربعاء 7 كانون الثاني يناير– 2009

الساعة السابعة صباحاً ..

خلا البيت من الفرح والخبز.

كانت الساعة الخامسة صباحاً وكان النوم والخوف يجلسان بثقلهما على صدورنا المتعبة من أصوات وصور وألوان الأمس، عندما شب والدي واقفاً وبقيت ملتصقاً بأمي في الفراش، كانت دقات خجولة عنيده وحبلى بالخطر.

نظر أبي من عين الباب ، التفت الينا دون أن ينبس وأشار لنا بعبور الغرفة.

انهار الرجل المستند الى الباب، فتلقفه والدي بعزم رجولته المخبوءة، كنت أشاهد جملة من المشاعر المختلطة، ترتسم وتختفي على وجه والدي مع مواصلة العمل لرفع الرجل وتعديل جلوسه.

أحضرت أمي الماء بعد أن ارتدت روبها الشتوي السميك، كانت بعض الكلمات متآكلة الحروف تتسلل على عجل من فم والدي باتجاه الرجل.

شرب الرجل ذو اللحية السوداء غير المشذبة الماء، فيما افسح الدفء والماء إلى جسده ببعض العافية.

عرفت فيما بعد أن الطارق هو ابن عم والدي، وأكثر من ذلك طليق أخته "رحمة" على اثر خلافات عميقة بين أبناء العمومة على ميراث جدهما وأشياء أخرى لا أفهمها.

عداوة استمرت سنوات طويلة، تلاشت في أقل من طرفة عين، عاودته جذوره الصحراوية، قدَّم له الملابس، الحمام الطعام وبعض المال وتركه لينام حتى صلاة الظهر.

لم يتبادلا كلاماً كثيراً وتبادلت عيونهما كل الذكريات العتيقة، تعاتبا، تناكفتا، تلاومتا، وعند الباب صالحه وعانقه وأعطاه علبة سجائره بعد أن استل منها سيجارة واحدة.

السؤال:

كم عدد رؤساء أمريكا؟

<u>الساعة الواحدة ظهراً ..</u>

Othman the Honest

There was once a powerful and good King. He loved his people and the nature (الطبيعة) above all else. He passed many happy hours caring for (يعتني بــ)the thousands of flowers in his garden. When he grew old, he called all of the children in the kingdom to his palace.

" I shall give each of you a seed " he toled them ." I want you to plant it in a pot and return

with your flowers in a year. Then I will decide who will be the next king."

Now Othman also loved wildlife. He often walked in his father's fields to watch the animals, birds and insects around him. Above all he loves flowers. So he planted his seed and every day he gave it enough water, but not too much. He put it in the warm morning light, but protected it from the hot sun . He did every thing a good gardener should do, but nothing happened. The seed did not grow!

The end of the year arrived and still Othman had empty pot. When he arrived at the palace, he stared (حدق) at all the beautiful flowers the other children were carrying. He stood sadly with his pot in front of him. The king saw him and asked his name. "What happened to your seed, my boy?" he asked.

Othman explaned, "I've watered my seed carefully but it won't grow. I'm sorry."

All the other children laughed and waved their flowers toward the king.

Thr old king spoke angrily to the other children, "I don't know what you've been growing. I gave you all cooked seeds which do not grow," he said. " Othman in the only honest child in my kingdom, and he shall be the next king.

عثمان الأمين[4]

كان هناك ملك قوي لكنه حكيم، يحب شعبه ويحب الطبيعة من حوله أكثر من أي شيء آخر. يستمتع بقضاء الوقت الطويل في حديقة قصره للرعاية بالأزهار الكثيرة والمتنوعة.

عندما اصبح كبيراً في السن، دعا جميع أطفال المملكة لزيارته في قصره. وقال لهم " سأعطي كل واحد منكم بذرة، واريد منكم أن تجهدوا في زراعتها ورعايتها وان تعيدوها في العام القادم زهرة مكتملة النمو، وبناءً على ذلك سأختار منكم من يكون الملك القادم لهذه المملكة.

عثمان هو الآخر كان يحب الحياة البرية كثيراً وكان يمضي الساعات في حقول والده يشاهد الحيوانات والطيور ويعدو خلف فراشات الحقول. وهو فوق هذا وذاك يعشق الأزهار والأعتناء بها. أخذ البذره وزرعها في وعاء وراح في كل يوم يسقيها كمية من الماء كافية دون أن يزيد أو ينقص. يعرضها لضوء الصباح الدافيء ، وفعل كل ما بوسعه ان يفعل لرعايتها الرعاية اللازمة لكن شيئاً لم يحدث، ولم تنبت البذرة شيئاً.

---

[4] الوحدة السابعة من كتاب English for Palestine للصف السابع الأساسي

بحلول العام الجديد بقيت البذرة على حالها دون ان تنمو وبقي الوعاء فارغاً . عند وصوله الى القصر مع أطفال المملكة، فوجئ بالأزهار الجميلة التي أحضرها الجميع في أوعيتهم بعد أن نمت بذورهم وتفتحت أزهاراً جميلة. جلس حزيناً أمام الملك دون ان يتفوه بكلمة.

شاهد الملك عثمان في حالته تلك فقال له:" ماذا حدث لبذرتك يا بني"

رد عثمان" لقد جهدت في رعايتها وسقايتها ولكنها لم تنمو، أقدم اعتذاري يا سيدي.

ضحك الأطفال بصوت عال ولوحوا بازهارهم باتجاه الملك.

غضب الملك من صنيعهم وقال:" لا أدري ما زرعتم في هذه الأوعية، فقد أعطيتكم جميعاً بذوراً ميته لأنها ببساطه مطهوة ولا تنبت. وتابع قائلاً " عثمان وحده كان أميناً، ولهذا سيكون ملككم القادم .[5]

---

[5] ملاحظة: لقد قمت بترجمة النص على مسؤوليتي وأعتذر "لعيوش" عن ذلك حرصاً مني أن لا يفوت القراء شيئاً كتبته أو اقتطفته في كراسها هذا، فقد يكون من بينكم من لا يتقن لغة أمريكا وبريطانيا العظمى؛ التي كانت لا تغيب عنها الشمس.

السؤال:

تُرى من المسؤول عن دم عثمان؟

السـاعة السادسة والنصف مساءً ..

استطعت أن أنام قليلاً بعد طعام الغذاء الذي استطاعت أمي توفيره بالكاد، وعندما استيقظت عند الخامسة مساءً كانت الكهرباء في البيت قد غابت بالكامل عن أرجاء غزَّة كلها، وبالتالي أُضيف الى ثلاثية "الخوف البرد والجوع" عمود رابع اسمه ظلام الليل، أو ظُلم الليل. وبهذا يستطيع الموت أن يبني بيته على الأعمدة الأربعة هذه، ويستلقي على سطح المنزل يعد الأرواح الصاعدة الى السماء غير عابىء بالقذائف الهابطة من الطيور المصنوعة في "أمريكا" من الحديد ومعادن أخرى.

لذلك آثرت أن أقضي الساعات الخمسة الماضية مستلقية على الأريكة الممدة في الصالة محملقة في سقف الغرفة، وبالتحديد في "النجفة" النحاسية كما تسميها أمي، افتح وأغلق عيوني بالقدر الذي تحتاجه مخيلتي لأشكل أشكالاً أراها في عيون رأسي، رغم قناعتي الأكيدة بعدم وجودها في الواقع، في محاولة لقتل الوقت الباقي، أو لايجاد نوع من التسلية في الفراغ الذي فرضه الظلام الخوف والبرد.

فلطالما أثارت المسافة المتشكلة بين الخيال والواقع، بين الحلم والواقع، متعة غامضة في نفسي.

وها أنا أكتب على ضوء الشمعة (وسأترك بعض دموعها على هذا الدفتر شاهداً مادياً على ما أعيشه ويعيشه شعب غزَّة الصابر، ليكون ذكرى وإن كانت أليمة) بعد أن تيبس ظهري وتجمدت أطرافي من برد الليل الذي يرسله غير مشكور البحر المجاور.

والدي لا ينفك يدخن بشكل متواصل، يدخل الصالة ويخرج منها بتوتر ظاهر، يتنقل من نافذة الى أخرى، ينقِّل بصره باتجاه الغرب تارة والشرق تارة، ويداري وجهه عن بحرنا الظالم.

في هذه الأثناء، لا تنفك أُمي عن تحذيره من النظر عبر النوافذ، خشية من رصاصة طائشة أو شظية عمياء تخترق جسده، وهي مستلقية على طرف السرير بكامل لباسها خشية من أية طارئ، يدب على أطراف أصابعه يختلس النظر الى جوف غرفة النوم، كي يقطع الصالة باتجاه المطبخ، تستشعر حركته الخفيفة فتطلق صوتها الذي لا تستطيع كما تردد هي أن تتحكم في درجته المرتفعة عندما تكون في حالة عصبية متوترة.

أفكر كثيراً في خوفها رغم أنها لا تظهر ذلك أمامي، فقد حاولت طوال السنة الماضية، إقناع والدي بمغادرة القطاع الى

مصر أو الخليج أو أية قطعة كونية على وجه الأرض أو خلف الشمس، إلا أن والدي بقي يُسوِّف في وعوده لها، متذرعاً تارة بالمعابر المغلقة في وجه الجميع، وتارة في أمه التي لا يريد أن يفارقها في هذا الوقت بالذات، وتارات بزراعة الأمل في قلبها، بعبارات يعلم في قلبه كله أنها ربما تكون بعيدة عن الفرج القادم، وأن الغد يحمل في أحشائه السلام وراحة البال.

السؤال:

هل هناك سقف محدد للحلم، على الفلسطيني أن لا يعبرة وإلاّ احترقت ذاكرته؟

الساعة الحادية عشرة ليلاً ..

أراد والدي أن يدرس الفنون التشكيلة التي أحبها دائماً كما يقول، لكن والده عارض ذلك بشده، وهدده بالتخلي عنه إذا فعل ذلك، لكنه بقي يمتلك ذلك الحس الفني الجميل، ومن حين لآخر يمارس الرسم في أوقات الفراغ، لذلك كانت له رؤية خاصة للأشياء من حوله، فيرى ما لا يراه غيره، بل ويشجعنا جميعاً لمشاهدة الأشياء بعينه، حتى أنني اصبحت أرى بعينيه الملونتين، أشياء يعبر عليها الآخرون دون ان يشاهدوها.

أراد مني أن أُشاهد لوحة تجريدية، شارك في رسمها قمر متواطئ، بحر ظالم، وعدو مصاب بعقدة نقص قديمة، فيما سيارات الأسعاف وصرخات بعيده تكاد لا تسمع، كي يكتمل المشهد التراجيدي بجدارة.

عمود من الدخان الأسود كأنه مارد حقود يسير ببطئ على أطراف قدميه خلسه يرتفع في الأفق، وقد شارف القمر على الإكتمال في تواطؤ غير متعمد مع سواد الليل، وسواد قلب الغزاة، فيما بحر غزَّة الظالم يجلس في صمت ولا يحرك ساكناً، لا يقف الى جوار أصدقائه الذين يعرفهم فرداً فرداً، ويعرف رائحة عرقهم، ولون بشرتهم، وخشونة جلودهم.

فيما الشوارع الخالية من البشر والسيارات المسرعة، وأصوات سيارات الإسعاف يمزق الليل الى أجزاء بغيضة، يختبئ الموت خلف كل جزء منها، يتدثر بوشاح أسود بين زوايا البنايات، ينتصب كشيطان في المفارق، وعند إشارات المرور، يفغر فمه الأسود في إيقاع كريه مع أزيز الطائرات، ووقع إطلاق المدافع

المنازل خالية نوافذها من الفرح وتنام في دعة كاذبة في حضن الخوف.

ينام بحر غزَّة بملئ جفونه ويرسل زفيره الليلي على شكل نسيم بارد ممزوج برائحة البارود.

اختلطت جميعاً لتشكل لوحة فريدة اشترك فيها الصوت والصورة والرائحة والخوف.

السؤال:

كم مرة يستحق أن يموت الإنسان؟

(اليوم الثالث عشر للجنون)

الخميس 8 كانون الثاني يناير– 2009

الساعة العاشرة صباحاً ..

لم ننم طوال الليلة الماضية، حيث أخطأنا الموت هذه المرة أيضاً كما قال والدي، فالقذيفة التي أصابت البرج المجاور، فهي إمّا اخطأتنا وأصابته، أو أنها ستصيبنا في المرة القادمة وتخطؤه. وفي كلا الحالتين نبقى تحت رحمة قدر غامض.

لم أعتد على النوم الى هذه الساعة المتأخرة، لكن قليلاً من الهدوء الذي تبع العاصفة وربما سبق عاصفة ستأتي، منحنا جميعاً بعض الوقت رغماً عنا كي نختبىء خلف ستار النوم، ويحط من فهمنا التقليدي للقضاء والقدر، إلى شيء أقرب إلى حظ عابث أو لاعب نرد هاو.

أشعر بالضعف والخوف، والعجز.

كعادته والدي يخفي عني الأخبار، ظناً منه أنه بذلك يخفف عني، لكن الأخبار التي تتناقلها الأفواه والألسن، ووجوه المارة والإذاعات والفضائيات التي تنعق بالموت ليل نهار، لا يمكن إخفاؤه.

يصعب على المواطن "الغزَّي" الذي يسير في الشارع أو الجالس في بيته إن بقي وأبقاه الله، أو كان هائماً على وجهه، يصعب عليه أن يجد عزاء في أي شيء وأي شخص من أي مكان على وجه الأرض.

قد تكون أمي محقه في خوفها وقلقها وحبها، لكنها بالضرورة لا تفهم مشاعر والدي المعقدة، حيث يمتزج فيها الحب بالكرامة، الحنان بالقسوة، الصبر بالعمل، ورغبة مصرة حتى الموت للبقاء على هذه الأرض الى جوار الكرامة وعزة النفس، وموطئ قدم الأباء يكون أكثر قرباً من عظام الأجداد كما يقول ولا أفهم ما يعنيه، برغم مشقة الجسد ومعاناة الروح.

تحت مطر الخوف ورعب فقدان من تحبهم، يستطيع المرؤ أن يجيب بإيجاز عن أسئلة الوجود الكبرى دون تكلف وبكلمات أقل. ومرة أخرى تتشكل بداخله حالة من القبول للموت أو الحياة بدون تفاصيلها، فيرى الصورة الكلية ويعمى عن حوادثها الكثيرة المملة. تنتفي حسابات الربح والخسارة، إذ يمكن تلخيص الحياة في قرار بسيط مثل عبور هذا الزقاق أو البقاء في البيت لتناول القهوة، مرتكزا لقدر غامض لا تعرف ما يخبىء لك، فكأنما الحياة لعبة ورق بينك وبين لاعب ماكر يخفي أوراقه عنك ويتقن العبث بمفردات وجهه ليضللك، فيزداد

وجلك، وأحيانا تدخل نفق الحظ والمغامرة العابثة بلا وعي أو مجرد رجاء.

السؤال:

هل تعرف أين تقع أوسلو؟

الساعة الثامنة والنصف مساءً..

وددت لو أملك جهازاً لتسجيل الصوت كي أسجل التقارير التي يقرؤها المذيع صاحب الصوت المتمرد "ماجد عبد الهادي" برومانسية السكين وهي تقطر دماً، وأكتفي بسماع صوته الدافيء والتفكير في قدرة الكلمات على القتل، وقدرتها على تطبيب الجراح، ومقدرتها على الذبح دون أن تريق دماً.

السؤال:

كم تبعد أوسلو عن بيتنا؟

الساعة التاسعة مساءً.

لم ينفك صديق والدي" الروح بالروح" " أبو سامي" من الاتصال به والطلب منه الى حد الرجاء، أن يحضر مع العائلة الى منزله الواسع الآمن، عارض أبي وكذلك أمي، وتمنيت في سريرتي أن لا يحدث ذلك دون أن أطلبه.

قال له على الهاتف:

_" تعال يا أبو العبد، بنتسلي مع بعض "

وأبو العبد هو الأسم الذي اختارته عمتي "نوال" وشاع بين الناس دون أن يكون للعبد هذا وجود سوى أنه انعكاس لاسم جدي "عبد الباقي" إذ لا يصلح أن ينادى والدي "أبو عيشه" مثلاً؛ ولم أفهم السبب الغريب الذي يحرم أب من أن يسمّى باسم ولد لم تراه عيناه، لم تقبله شفتاه أو تحمله يداه.

يرد عليه "أبوالعبد" عبر الهاتف النقال، وهو يرسم ابتسامه كاذبه.

-"اللي بطلع من داره بيقل مقداره.." ولكي لا يترك له وقت للتفكير بإهانة أو عنترية حاتمية.." يتابع

-" ما في مكان آمن يا أبوسامي، غزّة اليوم من شمالها لجنوبها، شرقها لغربها كلها نار مشتعله." وينهي بحزم

-" الأمان بالله وحده، وما في حدا بيموت ناقص عمر.."

يسود الصمت عبر الهاتف، يتبادل الرجلان بعض الأخبار السريعة وربما النكات السياسية، ليعاود في اليوم التالي "أبو سامي" الاتصال للحديث في نفس الموضوع ..

حالت أمي دون أن يدمي رأسه وهو يدقه في جدار الصالة أسفل ساعة الوقت المعلقه كقدر غامض، عندما تلقى

اتصالاً هاتفياً من صديق ثالث ليخبره أو يعزيه بصديقه "الروح بالروح" "أبو سامي" هو وباقي أسرته عندما تلقى بجسده وجسد أطفاله قذيفة سقطت من السماء دون أن تتوفر أية معلومات أخرى. وفيما بعد تناقلت الفضائيات الحادثة بتفصيل مثير للخوف.

مطلوب من "الغزاوي" أن يتلقى نبأ تلقي "صديق روحه" أو ولده أو والده قذيفة بجسده دون أن يحزن عليه لأكثر من الزمن اللاّزم لنقل الخبر من الفم الى الأذن، ليترجم على شكل كهرباء عصبيه من خلال السيالات العصبيه الى الدماغ، ليقوم الدماغ بدوره بتحليل الخبر وفرزه وترتيب أولوياته وتقدير درجة الخطر أو الفرح المترتب على الحدث، ومن ثم قيام الدماغ بإرسال الإشارات الى الحواس عن طريق الكهرباء لتحويلها الى أوامر انفعالية وحركيه وأدائيه، كإفراز الدمع، تورد الوجنتين، نفور المقلتين، ازدياد خفقان القلب الناجم عن زيادة إفراز الأدرينالين وتوجيهه عبر القنوات المناسبه للطم الكف بالكف، أو صك الوجه أو في أبعد تقدير تمزيق الثياب أو الصراخ، أو أن يهيم المرؤ على وجهه غير عابىء بالدنيا وما يدور فيها من جنون، فيتحول هو الى عاقل يعيش وحيداً في جنونه مقابل عبقرية الحضارة الحديثة بوسائل قتلها ونقلها للصورة عبر البث الفضائي الى جهات الأرض الأربعة في أقل

من رمشة العين. ليشاهد العالم مسلسلاً دموياً متعدد الحلقات خامته المتوفرة، طيور الحديد، اللحم الحي، الدم الساخن، عيون الأطفال، سيقان عذارى اليوم نساء الغد، صفاء وجوه المتزوجات حديثاً، فحولة الشبان، الأحلام المبعثرة، الليل المتواطيء بجدارة مع البحر على القتل، التاريخ المذنب حتى الإدانة، الجغرافية المتورطة حتى الثمالة، ومخرجه يجلس من بعيد على سطح أحد الكواكب الشمسية، يتلقى ردود فعل المشاهدين، يعدل من سيناريوهاته حسب مزاجه واحترافه، وفي كل يوم تتفتق قريحته عن فكرة جديدة لإطالة زمن هذه التسلية الدموية، فعدد الحلقات مازال حتى اليوم مفتوحاً على مصراعيه، وتلبية لرغبة المشاهدين الكرام.

يقول والدي، وبالمناسبة هذه الكلمات كلماته فأنا بصراحة لا أملك هذه الأفكار ولا تلك المفردات القاسية والجميلة في آن، يقول" لا خيار أصلاً، طيور الحديد من فوققكم، البحر من ورائكم، الموت من تحتكم ومن خلف أسنانكم، العدو من كل الجهات التي تعرفونها ولا تعرفونها، ما الفائده من الحزن، والموت محني الرأس، فلتكن موتة نغيظ بها العدا."

لم أشاهده في حياتي كلها بيأسه وعبثيته وفقدانه لكل ما يملك من صبر أسقاه ماء دموعه حتى استحال الى حكمة كما يقول، لكن حكمته فضحته أمام الفاجعة وكشفت له حقائق أخرى

في الحياة ما زال يجهلها، وربما سيحتاج الى دموع بعمق البحر الظالم واتساعه ليذرفها من عينيه وصبره، كي يفهم جزئيات الحياة، فضلاً عن تفاصيل الوطن كثير الأشواك المرصوف جسده بالألغام.

لا أمان لشبر واحد، لا مكان للحزن ولا حتى لقلب واحد.

أظن مخيلته الخصبة قد ذهبت الى أبعد من استشهاد "صديق روحه" "أبو سامي وعائلته وبيته وكلبه، وأربع عجلات كانت مربوطة بإحكام الى سيارته "الـــ BMW"، ذهبت مخيلته الى "عيوش" التي كان من الممكن أن تكون هي وأبيها وأمها ومعهم أحلامهم تحت الأرض كحال صديق روحه " أبو سامي" الذي كان بالأمس فقط يطلب منه للمرة المليون أن ينضم اليه في بيته الواسع الآمن.

"كل نفس ذائقة الموت"

" وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن ربها، كتاباً مؤجلاً"

رددت أمي على مسمعه وقد قرأت أفكار رأسه.

السؤال:

ترى ما طعم الموت؟

الساعة الحادية عشرة مساءً..

لا تزال الصور التي بثها التلفاز لبيت وجثث عائلة "أبو سامي" تلح على رأسي، فتثير في نفسي مزيجاً من مشاعر الغضب والحيرة والتقزز.

لاحظت أمي المتكومة على الأريكة حيرتي فأشارت لي بإحضار الدفتر كي تملي على قصة من قصصها الجميلة، في محاولة ربما لإشغالي بما يذهب الصور المؤلمة من صفحة رأسي وقلبي. قالت أكتبي واخذت تملي عليّ..

"كان يا مكان في قديم العهد والزمان نمر لا خطوط تغطي جسده، يمشي في الغابة متكبراً مغروراً بقوته، شاهد ذئباً يمشي الى جوار النهر.

صاح النَّمِر في الذِّئب:

–" قف أيها الذِّئب، شاهد قوتي" وأخذ يضرب الشجرة بقوة اهتزت بقوة فتساقطت أوراقها بكثافة، فخاف الذِّئب منه. ثم نظر النَّمِر الى الذِّئب نظرة تهديد ووعيد وقال:

–"هل تعرف أحداً يغلبني؟"

قال الذِّئب بخبثه المعهود.

–"بالطبع لا، ولكنني سمعت عنْ قُوّة الرجل."

قال النَّمِر ساخراً:

–" تعالَ معي كي نبحث عن الرَّجل "

في الطريق رأى جملاً فقال في نفسه هذا شيء كبير لعّله هو الرِّجُل. نادى بصوته المغرور

–" يا هذا، هل أنت الرجل"

قال له الذِّئب:

–" هذا ليس الرجل، هذا جمل، والرَّجُل أقوى منه، بل أن الرجل يركب الجمل ويضع حبلاً في رأسه ويجُرُّه حيث يشاء، والجمل على كبره الذي تراه يخضع له دون اعتراض.

تركا الجمل وسارا في الطريق، فقابلا فيلاً ضخماً، قال النمر:

–" لا بد أن يكون هذا الضخم هو الرجل، انه قوي وعنيد، لكنني أنا أقوى منه ، وسوف أريه قوّتي."

ضحك الذِّئب من نزق النَمِّر وتسرعه وقال له: "انتظر يا صاحبي ولا تتسرع، هذا ليس الرجل، اَّنه الفيل، الرجل يركب الفيل ويضع عليه الأحمال ويقوده بيسر وسهوله، ولا يملك هذا الضخم سوى الطاعة.

أخيراً أبصرا الرجل يشوي غزالاً ليأكله، فقال النمر

–" نعم أنا متأكد هذا هو الرجل، ما أضعفه"

طلب النمر من الرجل أن يصارعه، فوافق، فيما جلس الذِّئب جانباً يشاهد الموقف بترقب ومتعة، وافق الرجل على

الفور لكنه بأدب جم استأذن النَمِّر في أمر قائلاً: " لقد تركت قوتي في البيت، ولا يعقل أن نتصارع بدونها، لذا استأذنك في الذهاب لإحضارها، وافق النمر كي لا يشاع في الغابة أن المعركة لم تكن متكافئة. غير أن الرجل طلب منه أن يربطه في الشجرة الى حين عودته حتى لا يفر من المعركة، وافق النَمِّر حتى لا يشاع في الغابة أنَّه جبان.

ربط الرجل النمر في الشجرة، أخذ عصاً غليظة ما زالت مشتعلة بالنار، وراح يضرب النمر بها، والنَّار المشتعله تحرق شعره وتسوده، فأخذ ينادي الذِّئب المتفرج كي يخلصه من الورطة.

فك الذِّئب وثاق النَمِّر بعد أن غادر الرجل المكان، قال النَمِّر للذِّئب:

–" صدقت؛ الرجل أقوى مني .."

قال الذِّئب للنَمِّر:

–" نعم، وستبقى هذه الحروق في جلدك تذكرك بقوته".

أنهت القصة وبادرت هي هذه المرة على طرح السؤال.

السؤال:

هل تستطيع مخيلتك تصوّر شكل النمر بعد أن يترك رجال غزَّة حروقاً جديدة على جسده المغرور بقوته؟

(اليوم الرابع عشر للجنون)
الجمعة 9 كانون الثاني يناير – 2009

الساعة السادسة مساءً..

من يُحرمْ الطفولة، لا بد أن يحلم بالسلاح. ختم مراسل الجزيرة من لبنان بهذه الكلمات، في تغطيته لإحتجاجات أطفال المخيمات.

السؤال:

البندقية ضارة أم نافعة ؟

لنعد صياغة السؤال بشكل آخر.

البندقية ضارة اذا كان اتجاهها الى الأصدقاء ومفيدة إذا اتجهت الى صدور الأعداء؟ هل توافق أم لا؟

(اليوم الخامس عشر للعدوان)

السبت 10 كانون الثاني يناير – 2009

الساعة السابعة صباحاً ..

ما أن يبزغ فجر نهار جديد، حتى يبدأ "الغزيون" بإحصاء خسائرهم الليلية. يعدون الرؤوس الباقية في البيت، يتفقدون الأعمدة والسقوف التي آثرت البقاء صامدة تقي أهلها الحر والبرد وروث طيور الحديد كريهة اللّون والصوت والرائحة. بعضهم يذهب في مسيرته اليومية الى المشافي لتفقد جرحاه، البعض يبدأ نهاره في التفكير الجاد كيف سيحصل على قوت يومه وعياله، فقط من الخبز وأي شيء آخر، الغد لا يهم بالنسبة لهم، ببساطة لأن الغد بالنسبة لهم غير مفهوم، غير موجود ولا يثير أية رغبة في البحث.

الشباب منهم يجلسون القرفصاء، يستمعون الى الأخبار من تلفوناتهم المحمولة، يمتصون السجائر ويشربون القهوة، فكما يقول والدي، يمكن أن يعيش "الغَزّاوي" بدون ماء أو حتى هواء، لكن السجائر والقهوة فلا.

في فترات الهدوء التي تسبق العواصف وتليها، يتبادلون أحاديث الحرب بتحفظ شديد، ويصمتون أكثر. فقد قالت الحرب

جل الحديث وأبقت القليل من التعليقات الصغيرة، يتدرب بها الباقون كي لا تنسى أفواههم عادة الكلام.

النسوة والبنات هن الأكثر حزناً في هذه الحرب، مطلوب منهن إعداد الطعام إرضاع الأطفال حليب صدورهن الهرمة، في المساء مطلوب منهن البحث عمّن لم يعد من الرجال، والحزن والبكاء على الأطفال الجوعى، وعند حلول الليل تنام عيونهن دون قلوبهن الى جوار الخوف تماماً.

أفكر في عمَاتي وأشتاق لهن .

السؤال:

هل النساء مخلوقات جاءت من الفضاء؟

(اليوم السادس عشر للعدوان)

الأحد 11 كانون الثاني يناير– 2009

<u>الساعة الثامنة صباحاً..</u>

كنت أعبر الصالة، لقضاء حاجه، عندما استوقفتني صورة لفتاة أعرفها، وأعرف اسمها، كانت "جميلة"، لم أتبين الأمر ولماذا هي هنا، حاول والدي تغيير المحطة، فصرخت على غير العادة، ارجوك هذه "جميلة" وبدأت بالبكاء، نهض من مجلسه وقد استشعر جديّتي، بعد أن أعاد الصورة.

كان المذيع يسألها عمّا تود فعله، قالت "أود أن اصبح صحفية، كي أفضح المعتدين، ولكي أستطيع فهم ما يدور في كواليس السياسة."

كانت مشرقة كصبح، مبتسمة، متحدية غير آبهة بشيء، وعندما زحفت الكميرا بإتجاه جزئها الأسفل كانت سيقانها فارغة، تحسست سيقاني بحركة لا شعورية، وبدأت أحس بخدر ابتدأ من أطرافي وتحول في أعلى جسدي الى ما يشبه الدوار. بكيت بدموعي وبكى والدي ووالدتي، وجلس ثلاثتنا على شكل كومة كبيرة، طوّق والدي رأس أمي بيمناه، وجلست في حجره كطفلة بللت ثوبها فجأة في لحظة زحام، بدى المشهد عاطفياً بجدارة.

"جميلة" ذات العينين الصافيتين والجبين الواسع كأنه صباح وطن خالٍ من الغبار والظلم ورائحة البارود.

كانت صديقتي القريبة من قلبي، نتنافس في الدراسة كفرسي سباق، نتسابق في وسع عينينا، في طول قامتنا، في حبنا للعلم، وفي رغبتنا في الإبقاء على صداقتنا إلى الأبد.

عندما نسير في طريق عودتنا من المدرسة، نسمع بعض التعليقات البريئة أحيانا وغير البريئة أحياناً أخرى. يقول أحدهم: –"نخيل غزَّة أزداد نخلتين في إشارة إلينا، غير أنها كانت أسمن مني قليلاً الأمر الذي زادها نضجاً وجمالاً.

تعلمت منها الكثير، وتعلمت مني كتابة الملاحظات في المفكرة التي اعتدت أن أقدمها لها هدية في عيد ميلادها الذي يسبق عيد ميلادي بخمسة أيام ويصادف في باب السنة تماماً أي في 1/1 واعتادت أن ترد هديتي في عيد ميلادي بكتاب جديد تختاره بنفسها.

السؤال:

ماذا نسمي الحياة قبل الولادة؟

الساعة الواحدة ظهراً..

كنت أتوقع ردة فعل والدي تماماً، وهو يطلب مني الاستعداد للذهاب الى مشفى "دار الشفاء" لزيارة "جميلة"، وهذا ما أريده تماماً وإن كنت أشعر بالخوف من مواجهة نفسي أمامها، لكنني أتحرق الى رؤيتها، لتقبيل الباقي من قدميها، وأظنها بحاجة الى جدار من اللحم والحب كي تستند بظهرها اليه وهي الحبيبة والصديقة وزميلة الدراسة.

لم أبالغ في لباسي بل تعمدت عدم تسريح شعري، كانت تحب مثلي الشوكلاته السوداء ورقائق البطاطا، استطاع والدي بعد جهد أن يحصل على مثل هذه المنتجات التي تعتبر ترفاً خرافياً من "ألف ليلة وليلة" في "غزَّة هاشم" بعد عام ونصف من الحصار والإغلاق، والفقر وغياب الأمل.

كان اللقاء شاقاً، وكانت "جميلة" أكثر جمالاً من أية مرة قابلتها فيها.

تعانقنا بصمت وحرارة، لم أتمالك دمعي كعادتي، كما لم أمتلك من الكلمات ما يمكن قوله لفتاة بمثل ذكائها وجمالها وعمرها، أفقدتها طيور الحديد كريهة اللون والصوت والرئحة، قدميها، بينما كانت تلهو برفقة أخوتها وببراءة قلبها على سطح المنزل.

ولشد ما أدهشني أنها من ربت على كتفي وهي جالسة على سرير العافية منقوصة الأقدام، وجدتها مكتملة الأمل والرغبة في البناء من جديد برغم الدمار والفقدان الذي تحاول أن تتناسى غيابة في أقل وقت ممكن، كي تستعيد بقاءها ما دامت قادرة على الحياة.

لم نتبادل سوى كلمات قليلة، فما معني كلمة "كيفك" أو "سلامتك" .. أو أي شيء آخر، أمام هذا الخسران الغامر. بقينا نقول كلاماً طويلاً بلغة عيوننا، تبثني قهرها وحزن قلبها، تتشبث بآخر حبة أمل تستقر في قعر روحها كي لا تنهار، وتبدو أمام المارة كمن رفع الراية، وأبثها بحبي لها الرجاء والأمل والصمود والإرادة الصلبة في البقاء والتكيف وعدم الإستسلام للحزن أو الإعاقه، وكانت المرة الأولى التي أعترف لها بغير الكلام أنها أجمل مني، وأطول مني، وأكثر ذكاءً ومقدرة على العيش والمراوغة مني.

غادرت المكان بخجل ودون سلام، عندما حضر الطبيب لمعاينتها.

السؤال:

أين يسكن الأمل في بلادنا؟

(اليوم السابع عشر للعدوان)
الأثنين 12 كانون الثاني يناير– 2009

الساعة العاشرة والربع صباحاً

منذ الصباح لم أجد ما أفعله فعدت لقراءة الصفحات التي كتبتها طوال هذا الدهر الطويل الذي مضى علية اليوم سبعة عشر يوماً.

أحسها دهراً كاملاً من الصبر والخوف والترقب. عدت لقراءة هذه الأوراق وكانت دهشتي من نفسي كبيرة لهذا الكم من الأوراق التي استطعت كتابتها في هذا الوقت القياسي، حتى أنني في الأيام العادية عندما كنت أكتب في مفكرتي الرسمية أكتفي بصفحة واحدة وأحياناً أسطر قليلة، خشية من أن أتجاوز الصفحة المخصصة لكل يوم من أيام السنة. وبت على يقين أن عدم إحضار المفكرة لهذه السنة باكراً، كان نعمة لم أتبين أبعادها الاّ الآن، كانت دهشتي أكبر من كثافة الأفكار وتنوعها وربما ارتباكها وتشتتها، ولكن هي الحرب، وفي الحرب لا شيء على حاله، حتى أفكار رؤوسنا.

هي المعاناة وحدها قادرة على اجتراح المعجزات، وربما هي الحاجة التي أنجبت كل المبدعين والمخترعين على وجه الأرض.

بدأت بالتفكير مرة أخرى بـــ"الست وداد" وتخيلتها مبتهجة تبتسم بوسع شفتيها وأسنانها البيضاء، يشرق وجهها تحتضنني وتربت على كتفي كعادتها وهي تقرأ هذه الأوراق، وربما ستعرضها على مديرية التربية والتعليم لنشرها بين أطفال المدارس. أخذتني أحلام رأسي الى أبعد من ذلك، كأن يتم صياغتها من جديد، ووضعها في كتاب، على أي شكل، كي يقرأ الأطفال وربما الساسة والعالم بأسره، ما صنع الظلم بغزَّة وأهلها.

أكثر من ذلك، بدأت بالتفكير في عنوان لهذه المذكرات أو الأوراق المبعثرة، تارة معاناة أطفال غزَّة ، وتارة "ما تبقى لنا" قال لي أبي أن الكاتب الفلسطيني المرحوم "غسان كنفاني" له كتاب بهذا المعنى، في نفس اليوم وبعد وجبة من التأمل في قلب البحر صاح من الفضاء الخارجي "عيوش، وجدت عنواناً مناسباً لكتابك، وبحماسته المعهودة أمسك بالقلم الأسود العريض وكتب بخط يده على وجه الدفتر" غزة تستحم بدم أبنائها في بحر ظالم" كان العنون غير مفهوم بالنسبة لي، لكنه بدى مثيراً وملئ بالأسئلة، شاهد دهشتي من السؤال، قال: "انها الحرب المليئة

بالأسئلة، غير المفهومة، غير المبررة، وفيما بعد حذف منه "بدم أبنائها" لأنه يبدو طويلاً كما قال، وبقى العنوان " غزَّة تستحم في بحر ظالم" شطبتُ كلمة "بدم أبنائها" بقلم الرصاص لكنها بقيت ظاهرة وبقيت أقرأها في عقلي كلما أمسكت بالدفتر لأكتب يومياتي البريئة هذه.

السؤال: كم عدد فصائل العمل الوطني الفلسطيني؟

الساعة الحادية عشرة والربع ليلاً..

ساد الظلام باكراً، بقي ثلاثتنا جلوساً في الصالة على ضوء الشمع، كان نور الشمعة المترنح في الصالة من أثر النسيم البارد القادم من جهة البحر ربما يضفي على الجو المظلم بعض الريبة والخشوع، فيما في الجهة المقابلة ترتسم صور مضخمة لأشباح أجسادنا المنعكسة على الواجهة من أثر ضوء الشمعة المترنح لنا.

تحدثنا قليلاً، لم نتناول طعام العشاء البسيط كلا ولم نتناول الشاي الذي كنا نشربه ليدفئ برد قلوبنا الراجفة من البرد والخوف وغياب الأمل. كان والدي هذه المرة يجلس وسطاً بيني وبين أمي ويطوقنا بذراعيه في حممية، وحب ممزوج بالخوف.

نمنا باكراً ولم تنم طيور الحديد التي تحلق في سماء رؤوسنا وسماء القطاع حاملةً في سلالها بيضاً يعبق بصفرة الموت، ورعب الرحيل قبل أن يكتمل رسم الصورة.

نمت في وضع جنيني ملتصقة بأمي لكن الساعات الطويلة للّيل قطعها رعب هدير طيور الحديد الكريهة اصحو أنام أصحو وأنام وأستمع الى شخير أمي المحتمل، لكن الزائر الجديد القديم كان بطل الليل الأوحد؛ أنها كوابيس أحلام الليل، ربما صغيرة مثلي لها أن تحلم بمطاردة الفراش، بالسير على رمل الشاطئ حافية القديمين، أن تحلق بسماء أحلامها الى جنة الطفولة البريئة حيث لا أوهام لا أحزان وأمل يرف بجناحيه يحفها بعنايته. لكن في هذا الجو الظالم المظلم، تغادر الفراش الى مكان آخر ويصبح رمل البحر رملاً يحرق باطن القدمين والأحلام.

"الأحلام انعكاس لأفكار ومخاوف الواقع" يقول أبي، فالذي يقضي يومه في المدرسة يتناول حساءً ساخناً في الشتاء، وفي المساء يتحلق حول الدفء والحب يحلم بالليل بالفرح والجنة، لكن كيف لرؤوسنا المحشوة عن آخرها بالخوف، الرعب، صور الشهداء واللحم المطبوخ على نار غير هادئة، كيف له سوى أن تأتيه الكوابيس وليس أحلام الليل الجميلة .

الأحلام كما تقول" الست وداد" تأتي في ختام الأيام لتكمل رسم الصور الذي بدأها النهار ، ونهارات غزَّة في هذه الحرب المجنونه نهارات غير عادية وبالتالي ليلها لا يحمل في أحشائه سوى الألوان القاتمة السوداء لرسم باقي الصورة.

"إذا كان الحلم خيراً أذكره، وأن لم يكن كذلك. لا تحدث أحد به" تقول أمي دائماً .. لكنني لا أنفك أحدق في وجهها، صور الأمس التي شاهدتنا عبر الشاشة الصغيرة، تلح على ذاكرتي وصفحة راسي، شاهدت أمي هذه المرة مسجاة على أرض الغرفة، دون أن أتبين ملامحها، ذابت تقاسيم وجهها تماماً ليستحيل الى قطعة واحدة مسطحة من الحلوى المطهوة على نار حامية. حاولت أن أقلبها كي أقرأ هويتها من أصابع يديها ، قدميها التي بقيت تعاني من قدميها المسطحتين عمرها بكله. حاولت أن أقرأ الشامات المتشرة على جسدها ووجهها ، كانت شامات وجهها قد ذابت هي الأخرى مع باقي تقاسيم وجهها، لكن شامة كبيرة مندملة في باطن يدها اليمنى والتي أعرف موقعها ولونها وحجمها هو الذي أكد لي ان المستلقية على ظهرها مستسلمة على غير عادتها، فاقدة لقواها لعندها لصبرها لحبها وعصبيتها، أن الملقاة على أرض الغرفة هي أمي ولا أحد سواها.

"أعوذ بالله من الشيطان الرجيم"

"أعوذ بالله من الشيطان الرجيم"

"أعوذ بالله من الشيطان الرجيم"

كان رأسي محشواً عن آخره بالألم وبات هذا الألم يتركز في مقدمة الرأس، أحملق في وجهها الجميل أعد شاماته في عقلي، أتأكد من وجودها من لونها وحجمها في مخيلتي، أمسك بيدها أقبل باطنها اتأكد من وجود تلك الشامة المندملة في باطن يدها فتضفي على يدها إحساساً كأنه حلم جميل..

تستغرب هي لسلوكي الغريب، تضمني وتقول بعض الكلمات القليلة عن الغد القادم الجميل، عن " الإسكندرية" التي ستذهب اليها وتأخذني معها ولن تعود أبداً الى حيث هذا الجنون في زياراته التفقدية بين الحين والآخر ليعيش بين الأزقة وخلف الجدران.

"سلِّم يا رب.."

"سلِّم يا رب.."

"سلِّم يا رب.."

اردد ثلاثاً في سري دون أن يدري أيّ من سكان البيت ما يدورفي خلدي وخاطري.

السؤال:

من أين تأتي الأحلام؟

(اليوم الثامن عشر للعدوان)

الثلاثاء، 13 كانون الثاني \ يناير– 2009

الساعة العاشرة والربع صباحاً

"شكراً لكم"، ختم "لؤي صبح" حديثه من خلف عيونه التي اختفت خلف الغمام لمراسل الجزيرة.

تتزاحم الأخبار والصور القادمة من الشاشة، والأفكار في رأسي المنعكسة من توتر والدي الذي أخذ يتنامى، مع حركة عقارب الساعة شبه الميته المشنوقة في الصالة.

يبطيء الزمن سيره في الحروب، غير آبه بالجرحى كي يسارع من التآم جروحهم، غير مكترث لجثث الشهداء، فيسرع خطوه تضامناً معهم كي يلقوا ربهم أحياء. ولا يكترث حتماً بدموع الأمهات ووجع قلوبهن على الأكباد التي تتمزق، على الأخوة والأزواج المشوهة أعضاؤهم، لا يبدي أدنى اهتمام فيسرع خطوه، ليفسح للنسيان المحمول على ظهره كي يجلس الى جوارهن ويطبب حرقة الجروح، ولا حتى اعداد بعض الحساء الساخن لتدفأ القلوب الباردة من الجوع والخوف والفقدان.

هو في انتظار أوامر الشمس ربما، كي تتحرك في اتجاهها الواحد والوحيد، الشاهدة يقيناً على أبنائها المكلومة قلوبهم.

كنت أتحاشى بالقدر الممكن مشاهدة التلفاز، الذي لا ينفك يبث الصور الأليمة لأطفال أعرف وجوههم ولا أذكر أسماءهم، شاهدتهم في الشارع أو على الشاطيء، وجوه أقرؤها واقرأ تقاسيم الفرح الغائب، والخوف المخبوء في زوايا عيونهم.

يستطيع مراسل الجزيرة ربما أن يصور "لؤي" أو "جميلة" او "أحمد" أو "أبو صابر" وربما "الحاجة صبحا أبو حليمه" ونقل معاناتهم الشخصية الى فضاء الله، لكن الأرض تقول كلاماً آخر، ويتحدث الواقع عن عشرات الآلاف من البشر والحجر والشجر، تمكنت طيور الحديد، أن تسطر بطولات قادتها وجنودها على الأجساد الرقيقة وعلى أغصان الشجر.

"شكراً لكم.."

أنا نفسي أعجب لهذا الجبار الذي يعيش داخل هؤلاء الأبطال الصغار، ويجعل من طفل مثل "لؤي" أفقدته الحضارة بآخر إبداعاتها نور عينيه، وما زال في فمه شُكر يتوجه به الى كل من يدب على وجه الأرض وسطح القمر.

بالمناسبة، "لؤي" لن يتمكن بعد اليوم من البكاء، فقد أفقدته الحضارة منابع دمعه، انتصر على جلاده، وأصبح يرى بنور الله.

"لؤي" الجريء الجميل الصامد أكثر من البحر، لا بدّ سيجد من يعوضه عن اختفاء عينيه المفاجئ والمفجع ببعض الألعاب السمعية أو اللمسية أو في أبعد تقدير يُغَيِّر الأطعام التي اعتادها لسانه، دون أن تتمكن عيونه من مشاهدته، لكن يا سكان الأرض، "العين هي التي تأكل" كما تقول جدتي "أم فتحي" وتقول ثقافة سكان الكوكب الأزرق .

السؤال:

ما هو حدود الأمل؟

<u>الساعة الواحدة صباحاً..</u>

قبل أذان الظهر بقليل تلقت والدتي خبر إستشهاد إبنة خالها "عنايات" عبر الهاتف، أصيبت في روحها، ودخلت مرحلة موغلة من الحزن الصلب هذه المرة، "عنايات" الشابة الرقيقة الحنونة التي تصغرها بثماني سنوات، كانت هي ولا أحد سواها من خطبتها لــ" عماد" صديق والدي والذي تصله به قرابة من

جهة "ستي عيشه" كانت تزورنا كثيراً، تجلس لساعات رأسها في رأس أمي تتحدثان عن أسرار مصر القديمة كما يقول والدي ويثني على ذلك صديقه "عماد".

أرادت أن تخرج من فورها على غير هدى الى بيت الفقيدة، لكن والدي منعها باسلوبه الرائع في التخفيف عن الآخرين ووعدها بمرافقتها عندما تهدأ عاصفة القصف.

يصغي والدي بعقله الموصول بأذنه الموصلة يقيناً بباقي حواسه الى صوت النار، يتمكن بمقدرة فريدة من معرفة نوع القذيفة، هل هي قذيفة دبابة أو طائرة أو حتى صاروخ قادم من البحر، يرقب مسافة الزمن والوجع والخوف الفاصلة بين انطلاق القذيفة من فم الأعداء لتصل الى جسد طفل أو قلب أم أو حتى الى رحم شجرة.

بتنا نعيش أجواء مأزومة أكثر من قبل، وبات ثلاثتنا نحس بزحف الخوف والموت باتجاه بيتنا، نرقب الباب في كل لحظة، يدق الباب في عقولنا في اليوم والليلة ألف مرة، ونترقب في كل لحظة أن خطراً ما لا بد سيزورنا في اللحظة التالية لكل لحظة تمر ولم نزل بعد نعيش الخوف ونتنفس هواء الحرب الملوث بالبارود ودخان قنابل الفسفور الأبيض.

السؤال:

ما تعريف الخوف؟

الساعة الثامنة ليلاً ..

رضخ والدي تحت الحاح دموع أمي التي لم تفارقها طوال النهار للخروج باتجاه بيت "عماد" لمشاركة البنات الثلاث ووالدهم العزاء وربما الدفن، لبس كلاهما السواد، وفي أثناء ذلك لم ينفكا عن توجيه النصائح لي، "إذا حصل كذا افعلي كذا، إذا لم يحدث كذا عليك التصرف بالطريقة التالية"، الأمر الذي ضاعف من رعبهم، كما أوصى والدي جيران الشقه بضرورة أخذ الانتباه من "عيوش" لساعة أو اثنتين، كان الخوف هذه المرة يتسلق خاصرتي، يصعد ببطئ سلم العمارة الطويل، يتربص خلف الباب الموصد، لم اشأ الاعتراض أو طلب بقاء أحدهم وذهاب الآخر وقد استثنى كلاهما احتمال مرافقتي لهما لبيت العزاء.

كانا يهمان بمغادرة الباب عندما اهتزت جدران القلب الداخلية مع جدران البيت والعمارة بكلها من أثر انفجار قريب على ما يبدو، تبادل "الغزاوي" و"الإسكندرانية" نظرة لم أفهمها، وربما سأحتاج الى عُمْرٍ من عُمْرِ الشوك والصبر والبحر كي أفهم ما دار في أربعة عيون حملقت فيما بينها لأقل من دقيقه، استقر فيها صدى الإصطدام الأخير واستقر القلب على اختيار واحد ربما رسمه القدر حيث ذهبت أمي الى موعدها وحيدة،

وبقي والدي في البيت الى جواري وحيداً يحملق في جوف ظلم البحر البعيد.

السؤال:

هل الإيمان ضرورة من ضرورات الحياة؟

الساعة السادسة والنصف مساءً..

طوال المدة الطويلة التي تشبه الى حد بعيد الفترة الفاصلة بين اكتشاف العجلة واختراع الهاتف الخليوي، طوال هذه المدة التي جلست ووالدي في البيت نحملق في مجهول غامض نشاهده كلانا كل من نافذة مختلفة، ينتصب بين الأرض والسماء، ننتظر عودة أمي من زيارتها التي أَصرّت عليها في ما هو أقرب الى الجنون من الخوف أو الحب أو مجرد الرغبة في مقابلة الموت الذي هو حتم من حتميات الحياة والبقاء وإعادة البعث.

ها أنا أكتب كعادتي لقتل الزمن الطويل، وفي رغبة خفية تنمو في داخلي أن هذه الحرب المجنونة يجب أن نعيد كتابتها مرة تلو مرة لكنني في كتابتي هذه ونحن جميعاً تحت النار تكتسب خصوصية وحرارة سيفتقدها قلمي وقلبي لا محالة عندما تبرد فوهات البنادق وتذهب طيور الحديد في هجرتها الموسمية

لتعود ربما في قادم الأيام لتفرغ بيضها بعد موسم بياتها غير الموسمي وغير المتوقع.

لكن أمي لا تقرع الباب لتقول بجسدها الحي أنها حضرت بعد زيارتها لبنات "عنايات" ابنة خالها الشهيدة. وهي تعمق توتر والدي في كل مرة يتصل بها في هاتفها الخليوي ولا ترد، يتصل "بعماد" وهو الآخر لا يكلف خاطره بالتقاط الهاتف اللعين ليذيب الخوف المكثف الذي بدأ يتراكم فوق رأسينا كأنه ثلج أسود سقط فجأة وبغزارة فزادنا برداً وخوفاً واحساساً بعبث الحياة والبحر وشروق الشمس.

أكتب بشكل متقطع، متأثرة بمزاج والدي القلق أبداً دون أن أفهم بالتحديد أين تذهب خيالات رأسه مع كل ساعة تمضي دون أن تدق الباب دقتها الموسيقة المعتادة، نفس اليد التي تتقن عزف مقطوعات الفرح في المناسبات على البيانو الملقى هناك كجثة قديمة في ركن قصي، بعد أن بقى طوال هذه المدة غير مستخدم بل وشكل عبئاً على التغيرات الجغرافية التي حدثت في البيت نتيجة لتبدل أماكن النوم بسبب حالة الطوارىء القاسية التي أدخلنا بها والدي حرصاً منه على حياتنا ودوام بقائنا.

يمر الآن على غيابها أربع ساعات كاملة هي الأربعة قرون من التاريخ غير المكتوب للحضارة التي غالباً ما يذكرها والدي تندراً ولا افهم بالضبط ماذا يعني بـــ "غير المكتوب"،

هممت بسؤاله في هذا الوقت المأزوم بما يقصده بـــ " التاريخ غير المكتوب" لكن رنين الهاتف المفاجىء منعني من سؤاله.

السؤال:

ما هوعدد الأعمدة التي هدمتها طائرات الحديد؟

(اليوم التاسع عشر للعدوان)
الأربعاء 14 كانون الثاني يناير- 2009

الساعة .

(اليوم العشرون للعدوان)

الخميس 15 كانون الثاني يناير- 2009

<u>الساعة .</u>

(اليوم الواحد والعشرون للعدوان)
الجمعة 16 كانون الثاني يناير– 2009

الساعة السابعة صباحاً..

ترددت كثيراً، وساومت جرحي أكثر قبل أن أتسلل في غفلة من حزني كي أكتب بعض الكلمات.

أتساءل في نفسي كيف يجوز لي أن أكتب؟

يعز عليّ أن لا أكتب يوميات الحرب البغيضة، لقد هبط الحزن على بيتنا هبوطاً اضطراراً مدوياً.

لم أتمكن ولم أريد ولم أستطيع، أن أكتب أي شيء طوال الأيام الماضية التي تلت الغياب القاتل والمفاجئ لأمي، كان الحزن أكبر من الكلمات.

السؤال:

لماذا تموت الأمهات؟

الساعة العاشرة صباحاً ..

بلغة مختصرة أشبه ما تكون رموزاً اتفقنا على الذهاب الى المسجد للصلاة، فقد كان في حاجة مثلي الى سند من نوع

ما، الى قوة أخرى أكبر من الكلمات التي سمعناها في الأيام السابقة التي تلت الحادث الأثيم، وقد سمعته يهاتف صديق له لم أتمكن من تمييزه عن مسجد قريب فيه مكان مخصص للنساء.

التنقل في السيارة محفوف بمخاطر كبيرة، بعد هذا السعار الذي يتصرف به المعتدي، كان ربما اليوم الأول الذي نخرج فيه الى الشارع ما خلا تنقلاتنا القليله عقب استشهاد أمي وانتقلالنا أكثر من مرة الى بيوت حاول والدي أن يتلمس بعض الأمن فيها، ليكتشف أخيراً ونحن معه أن كل البيوت مهددة، وأن أفضل مكان للحياة وللموت هو بالضرورة منزلنا.

ترى الحيرة في وجوه المارة، وتقرأ في الطرقات دهشة الأشياء.

السؤال:

كم تحتاج غزة من الرمال كي تدفن موتاها؟

<u>الساعة ارابعة بعد الظهر ..</u>

قرار جديد لمجلس الأمن رقم 1860 يضاف الى قرارات لا تنفذ وتتسم عباراتها بالغموض كما قال والدي وهو يحرق نفسه بلفائف الدخان التي لا يحتاج الى ولاعة ليشعل بها سجائره، بل يشعل واحده من عقب أخرى ، يمضي نهاره وشطراً كبيراً من ليله يحملق في السطح الفسفوري للبحر البعيد،

ولا ينفك ينعته بالظلم، منذ زمن بعيد وزاد ترداده لهذا الوصف بعد الحصار والإغلاق، وتعاضم بعد العدوان، ليصبح بعد مغادرة أمي للدنيا كرهاً وبغضاً، كأنما تمثل له في شخص كريه الرئحة غزير شعر الوجه ميت القلب منزوع العاطفة.

وبين مفاصل الوقت المتسرب من بين حارات وشوارع غزّة وبيت لاهيا ورفح وجباليا يجلس الى التلفاز الذي جهد في تحويله الى الأبيض والأسود يشاهد "قناة الجزيرة" وهي تقيء بالأخبار وأعداد الشهداء ومن بين أعدادهم المتصاعده رقم واحد يعود لأمي، يمسك رأسه بمجامع يده وزهر السيجارة المتوهج بين يديه يبدو كشعلة ملتهبة مزروعة في رأسه.

ها هو ينادي من الشرفة المطلة من بعيد على البحر الظالم.. وهي المرة الأولى التي أسمعه فيها ينادي أسمي بطريقته القديمه كأنه للحظات نسي حزنه ونسي معه ...

سأترك الكتابة الآن وأعود لأكمل فيما بعد لكن.

السؤال:

ما هي عدد القرارات التي صدرت عن مجلس الأمن في القضية الفلسطينبة؟

الساعة الخامسة والنصف صباحاً..

الساعات تمر بطيئة، الكهرباء غابت غيبتها الطويلة وها هو الليل يتمدد في الأفق يحتل الغرف وباحات المنازل، الشمس دارت دورتها الإعتيادية خلف المنزل، أشاهدها من مجلسي على طاولة الطعام مقابل النافذة باتجاه الغرب على استحياء تتسلل لتأخذ حمامها المسائي في ماء البحر، كي تستعد لرحلتها القادمة باتجاه الشطر الآخر لأرضنا المعطاءة.

السحب القليلة المحيطه بها تتضرج خجلاً من صمتها، كان مشهد الغروب يوحي بفرح مخبوء خلف القدر، لكن أصوات القتل المنبعثه من فوهات البنادق والمدرعات يتناقض صارخاً مع همس الشمس الخجول للغروب القادم دون اكتراث. يزحف الليل ليشيع البرد والظلمة والخوف في بيوتات "غزّة" الوحيدة في حربها هذه.

والدي يتعمق صمته وكرهه وغيظه، تحدث خلال الأيام الماضيات قبل أمي عن العجز الذي يصيب روحه وأطرافه، كيف يمكن أن يتحرر من عجزه هذا. لكن هذا اليوم عجزه أخذ يتجسد في عيونه الفارغة تماماً من الأمل والفرح، قبل أمي كان وبرغم الحرب والخوف كان يبقي على مناطق واسعة من الأمل

في زوايا قلبه وتترجمها عيونه، لكنه اليوم يبقى صامتاً يدخن بشراهة ورغبة أقل بكثير مما كان يفعل.

عجزه المتراكم يفقدني القدرة على الحديث معه في أي شيء، في التخفيف عن قلبه المثقل بعرقه وخون الأيام وعثراتها.

ماذا أقول له، كيف سأخفف من حزنه؟

وأنا من سيخفف حزني؟ من سيطبب جرحي؟

لا أجد سوى القلم والدفتر لأقول ما يجول في خاطري بما أملكه من مفردات تبقى قاصرة عن التعبير عن أحاسيسي الكثيفة ومشاعر قلبي المحترقه بفرقة الحبيبة أمي وحيرة والدي وحزنه الأكبر من الكلمات.

الغريب في الأمر أن الحرب لا تدع المكلومين بفراق أو فقدان من أن يعطوا الغياب فرصة كي يحزن بمجامع قلبه، ويبدو حزنه منقوصاً عندما يختلط بالخوف والترقب.

تتنازعني الرغبة في الكتابة كي أتطهر من نزيز دم قلبي وبين عبثية الكتابة في لحظات مريرة تلت زيارة الموت لنا في اقرب وأعز شخص علينا أنا وأبي، أحياناً أود تمزيق هذا الدفتر وتمزيق الأيام كلها التي سبقت وستتلو فراق الأم لابنتها وبيتها وزوجها. لكن الموتى لا يعودون بتمزيق الأوراق ولا شق

الصدور، الموتى يعودون في حالة واحدة فقط عندما يتماسك الأحياء من خلفهم ويبقون على ذكراهم حية خاصة إذا كانوا من الشهداء كأمي، هذا ما قالته لي جدتي بعيونها الغزيرة من الإسكندرية، وقالت كلمات أخرى كثيره تناوب عليها أخوالي وخالاتي وجدي الذي تفاقم مرضه عندما علم باستشهاد ابنته عازفة البيانو.

ماذا تعرف "طيور الحديد" عن الموسيقى، عن أصابع أمي الرقيقة ، عن الألحان التي تستخرجها من رأسها دون أن أعرف من أين تأتي بها.

ماذا تعرف القذيفة أو ربما الشظية أو الصاروخ الذي اصابها عن رقتها وطيب قلبها وصبرها وعنايتها. ماذا يعرف المارة حلو حديثها وطيب طعامها..؟

أنا وحدي من يعرف كل هذا وأكثر.

لكن الأموات لا يعودون. الأحياء يولدون مرة أخرى في مكان آخر، يجتازون الجسر البغيض باتجاه الخلود والسرمدية، وهذا كلامها هي قالته لي في أكثر من مناسبة وأكثر من طريقة إيماناً منها ربما بتقاليد مصر القديمة القادمة منها بأزلية الحياة ما بعد الموت، كانت تردد بإيمانها الشاعري العقائد المصرية القديمة، ويعززها والدي بايمانه الديني الإسلامي العميق دون أن يضفي عليها شيئاً من أساطير مصر القديمة التي تتفق مع إيمان

المسلم بحياة سرمدية يحياها المؤمن بعد الموت في الجنة أو في الجحيم.

ترى هل أمي ستسكن أية جهة من جهات الآخرة.

الجنة أم الجـــحيم

لا، إنها شهيده وستكون مع الصدّيقين والشهداء ولن يبلى جسدها، ستبقى غضة جميلة كما كانت في الدنيا وأكثر.

متى سأتخلص من هذه الأفكار، متى سأطمئن على أمي أنها لن تكون من أهل الجحـــــ.. يا إلاهي ساعدني..

السؤال:

ماذا يبقى من الأحياء بعد موتهم؟

الساعة السادسة مساءً ..

من الذي يمكن له أن يسد الفراغ المتشكل من غيابها؟

ماذا سأفعل في اليوم التالي لصمت المدافع عندما يكون صوتها قد صمت الى الأبد؟

ماذا سأقول لجدتي "أم الأمين" في الصيف عندما سنزورهم بدونها؟

هل سيسأل بحر الإسكندرية عنها عندما نذهب في الصيف؟

لماذا أصابها سهم الموت ولم يصب غيرها؟

الأمهات يملأن الشارع، ولكن هن أيضاً سيقلن هذا عن أمي فيما لو بقيت، وذهبت أمُ هنا أو أم هناك، الفاجعة كانت ستحل في بيت غير هذا البيت فقط، لكنها لن تذهب أبعد من هذا المكان.

هل سيتزوج أبي بعدها؟

لا أستطيع مجرد تخيل وجود إمرأة أخرى تجوب الصالة تُعدّ الطعام غير أمي، هو لن يفعلها، لكن عمّاتي لن يدعنه طليقاً دون أن يحضرن له إمرأة تنجب "عبد الباقي" الذي حلمن به طويلاً.

ماذا سأفعل مع تلك المرأة التي ستحاول أن تدّعي الأمومة؟ لكن والدي لن يفعلها.

لكن أمي كانت من ذلك النوع من النساء التي لا تنجبها الأرض إلا قليلاً.

لكن أبي لن يصمد طويلاً أمام إلحاح عمتي "رحمة" بالتحديد، ستقول له "الحي أبقى من الميت" وتداري وجهها كالعادة عني.

ستي "عيشه" هي الأخرى ستشارك في تحريضه على الزواج لو كانت من أهل الدنيا، لكنها ستحزن لفقدانها، فقد كانت تحبها من قلبها بسبب رعايتها لها وإفراطها في العناية بنظافتها الشخصية، طوال مدة مرضها الطويلة.

لا أدري ...

الأفكار تتسابق في رأسي تعدو في سرعة الضوء تتنقل بحرية في كل الإتجاهات. وتزيدني بدورها ألماً وحزناً وبعداً عن السعادة التي لا أظنها ستعود الى قلبي وإن كانت ربما تعود الى قلب أبي بمجيء امرأة غير "الإسكندرانية" ترضى عنها عمّاتي وجدتي في قبرها.

لا أدري ، لا أدري، لا أدري...

السؤال:

مرة أخرى؛ لماذا تموت الأمهات؟

<u>الساعة التاسعة مساءً..</u>

يحاول "أبو الفهد" "أبو صالح" "أبو نادر" "أبو ضحى" وكل أبوات الأرض إخراج والدي من حالة الحزن التي دخلها ولم تعد حتى "طيور الحديد" بقتلها وخوفها وصوتها ورائحتها قادرة على إخراجه من كهف الحزن الذي أدخله به صاروخ سقط سهواً أو عمداً، على سيارة صادف مرور أمي جوارها أو مرورها الى جوار "الإسكندرانية" أمي، لا فرق ما دامت النتيجة واحدة.

ليبقى الى جوار حزنه صامتاً صابراً يغلي أو هكذا يهيىء لمن يراه، ولا يعود يراه عندما يحل الليل الخالي من صفحة

وجهها وابتسامتها التي كان يجبرها أحياناً عليها كي تنير البيت الخالي من الأمن والكهرباء.

عندما يحل الليل يغيب في كُمونٍ وصمتٍ كصمت معابد مصر القديمة الغارقة في غموضها، يبقى معلقاً ببصره في السماء، كمن يشاهد الأرواح في رحلتها الأكيدة إلى السماء للقاء خالقها، متسائلاً كنساك معابد الأقصر عن سر البقاء وسر الموت وسر المسافة الفاصلة بين الولادة والموت، المسافة التي قضتها أمي ويقضيها كل حيّ في حيرة وارتباك وترقب. دون أن يعرف منها سوى القليل.

أنا أحاول أن أكتب ما سمعته منه من خلف باب الشرفة وهو يناجي الليل ربما أو يناجي روحها التي ما تزال ترفرف حول البيت، تضحك منا، من خوفنا، من لهفتنا على الحياة، فهمت بعضها ولم أفهم البقية الأخرى، أكتبها كي تكون شاهداً على قلب مجروح اسرفت "طيور الحديد" في تلقينه درس الطاعة هذه المرة.

حديثه يزيدني رعباً وخوفاً لكن أعلم أنه كلما تكلم كلما سارع في الخروج من كهف الحزن المظلم الذي أصبح يسكنه، ويسرع أكثر ليتعافى من جرح فقدانه.

السؤال:

هل الحياة بعد الموت كالحياة قبله؟

الساعة الحادية عشرة ليلاً ..

في حصاد اليوم من فضائية الجزيرة، وصل الرقم الى 1133 شهيد من بينهم امرأة كانت تسكن هذا البيت هي "الإسكندرانية" المرحومة أمي.

حاولت النوم لأكثر من ساعة ولم أستطع، رغم إحساسي بالأرهاق الشديد، وألم يطوق رأسي وخوار عام في بقية أجزاء جسدي، وآلام أشعرها لأول مرّة أسفل ظهري.

ماذا يبقى من أحياء الأمس بعد موتهم؟

لماذا تموت الأمهات؟

لماذا تنشأ الحروب؟

أين يذهب الشهداء.. خاصة أمي؟

ماذا ستفعل الأمهات بعد غياب الأبناء؟

هل الفسفور الأبيض ينفع في السلم كما في الحرب؟

كم تحتاج الأرض من الدماء كي تشبع ؟

لماذا لا ترتوي الأرض بالمطر الذي تأخر كثيراً هذا العام بدلاً من الدماء ؟

هل سيستعيد لؤى عيناه ويغسلهما بماء البحر المالح كما اعتاد في كل صباح؟

هل ستتمكن جميلة من السير في شوارع غزَّة مزهوة بشبابها وعبثها ولهو الصبية وتعليقاتهم ؟

كم يحتاج العدو من أجساد الأطفال كي يهدأ قليلاً، ويذهب في رحلة تأملية يعود على أثرها موقناً أن إرادة الأطفال أقوى من طيور الحديد؟

متى سينتهى هذا النهار الطويل ويأتي نهار أكثر مللاً وقسوة من سابقه.

هل الزمن كما تقول عمتي "رحمة" كفيل بترميم جدران قلبي المتهتكة لفراق أمي.

هل سأستطيع التحديق في وجه والدي بعد اليوم؟

هل سيأتي يوم ويتصالح والدي مع البحر "الظالم" ويعود الى النوم الى جواره وانتظاره عند المساء حاملاً له في يده وردة ؟

ماذا يبقى من الأحياء بعد موتهم؟

ماذا بقي من أمي بعد أربعة أيام من رحيلها، وأربعين قرناً من تاريخ مصر القديمة التي كانت تسكن في قلبها وعيونها ومشاعرها، لهفتها، غضبها صمتها والدفء المتولد من وجودها في غرفة النوم والصالة والمطبخ، خلف الجدار وفي الباب، في السيارة والمدرسة وغرفة الصف.

ماذا بقي من أصابعها الرقيقة الماهرة في العزف على البيانو الحاناً لا يتقنها سوى من عاش ستين قرناً هي عمر مصر وعمر الإسكندرانية التي عاشت في هذا البيت وقتلتها قذيفة طائشة، جابت الأرض والشوارع والبيوت والأنفس كلها واختارتها لتكون الشهيدة رقم (1099) .

"الإسكندرانية" أصبحت رقماً من الأرقام المتناثرة في فضاء حياتنا. (1099) رقم طائش يمكن أن يكون رقم لسنة ميلادية أو هجرية أو عبرية، يمكن أن يكون لقرار من قرارات مجلس الأمن، لمبلغ ما من عملة يونانية أو تركية، لعدد من الأسهم، لعدد من الطلعات التي تقوم بها طيور الحديد، لرصيد بنكي، أو لعدد الأحرف اللازمة لقول الحقيقة التي يرفض الجميع النطق بها وإذا نطقت توارت خلف الكلمات.

ماذا بقي من "الإسكندرانية"؟

صورتها في الزي الفلسطيني، مطرز بألوان للفرح زاده جسدها جمالاً، مبتسمة، جالسة ببلاهة الحياة وعبثها الى جوار صور كثيرة على البيرو في الزاوية القصية للصالة.

شعرها المرسل على ظهرها كليل مستسلم لدعابات القمر، يُكمل وسع عينيها الفرعونيتين المكحولتين صورة يتوسطها شفتان قرمزيتان لا تنفكان عن الإبتسام. وعلى وشك التصريح بحكمة.

ماذا بقي منها ؟

عطرها الصاخب في الأماسي، إشراقة وجهها في الصباح بعد أن تأخذ حمّامها الساخن تطلي جسدها بالزيوت دون إسراف، في طقوس هي أقرب للعبادة منها الى العناية اللازمة لامرأة تعيش في كوكب بعيد منقطع عن العالم الحديث "كغزَّة".

ماذا بقى من "الإسكندرانية".

رائحة حنانها الغامر، هداياها المختاره بعناية، ألوانها الفريدة التي تستلهمها من تاريخ مصر القديمة، دفىء لقائها الممزوج بعطور معتقه أعدتها الملكة "نفرتيتي" بنفسها.

ماذا بقى منها؟

صبرها المطاط المستطيل، العميق، المطلي ذكاءً ورثته كابراً عن كابر من "حتشبسوت".

ماذا بقي من الحبيبة والصديقة طيبة القلب والرائحة؟

مخارج حروفها الناعمة، لهجتها المصرية المحببة الى القلب.

تدور كلماتها أرجاء الصالة، تطل من غرفة نومها، تداعب أدوات المطبخ، تغني أحياناً كلمات قصيدة، ترانيم قديمة، لحن شارد قادم من الصحراء، يتسكع الى جوار ضفتي النيل، يتنفس النسيم القادم من بحر الإسكندرية.

صورها موجوده في كل مكان، في الزوايا على الكنب في الشرفة، في فم الحمام، على نهايات الجدران، خلف المناشف والشراشف، قرب الغاز، الى جوار أبي على الكنبة، تهتز بإيقاع رتيب على الكرسي الهزاز الباقي بعدها، تجلس خلف البيانو الأسود كقلب الليل، تداعبه تثير غرائزه، يصدح من جوفه صوت عميق يقول ما لم تقله طوال عمرها الممتد بيننا؛ قبلنا وبعدنا.

هل بقي البيانو والكرسي الهزاز، كأس النسكفيه الخاص بها، عطرها، روجها، كحل عينيها، أحذيتها، منشفتها الخاصة، حفايتها ، سريرها، منامتها، روبها؟

هل بقيت ملابسها، نظارتها الشمسية، حقائب يدها، هل ذهبت هي وبقيت كل هذه الأشياء المادية لتعيش بعدها ما شاء الله لها أن تعيش، ربما ليستخدمها بعدها أناس يبغضون التاريخ ويجهلون الأسماء والمعاني والمشاعر التي تستوطن الأشياء.

يا الله .. يا الله...

ذهبت أصابعها وبقيت آثارها على الصحون والفناجين التي غسلتها قبل خروجها. بقيت آثار أصابعها على مقابض الشبابيك التي فتحتها قبل أن تغادر خشية أن يتكسر زجاج ما بقي منها في غيبتها.

ذهبت قدميها وبقيت خزانتها ممتلئة بأحذيتها من كل لون وشكل ومناسبة.

ذهب عنقها وبقيت أقراطها وقلادتها الذهبية من الذهب الأبيض مستقرة في درج خزانتها.

ذهبت هي وبقيت مرآتها، التي شهدت أوضاعها كلها، دون أن تحتفظ بأدنى صورة للذكرى ما دامت الأصل تتطالعها في الأوقات كلها.

ذهب الدم واللحم والحب والحنان والحياة، وبقيت أشياؤها متناثرة في أرجاء البيت تذكرني بها وبغيابها، في كل لحظة وعقب كل حركة.

لا ينفك خيالي يذهب الى جسدها الأنيق وقدها الرّهيف. الى أصابعها الرقيقة التي تتقن العزف على القلوب وعلى البيانيو، ماذا حدث لها الآن، شعرها ماذا صنعت به أربعة أيام من الموت، جيدها الطويل كنخلة، بشرتها المشربة بالحمرة والدلال، صدرها العامر، أكتافها المرسومة، أنفها، أذنيها، مسامات جلدها. ماذا صنع الموت بها جميعاً، هل أبلاها هل اقتات عليها. يعمر قلبي عزاء قديم أن أجساد الشهداء لا تبلى تعاند قدرها والزمن وتحافظ على بقائها برغم أنف دود الأرض، فيطمئن قلبي قليلاً .

ماذا بقي من الإسكندرانية ؟

والدي الوحيد، الوحيد قبلها وبعدها، يجلس وحيداً منذ ذلك التاريخ، مشدوهاً مصدوماً مأكولاً، يأتي بحركات غير مبررة، يردد كلمات قليلة، يجامل أحياناً، لكن كل ذلك من وراء قلبه الجبل المطل بقمته فقط دون أن يتمكن سوى القليل من معارفه من تقدير العمق الحقيقي لهذا الجبل الكبير العميق الصامد الباقي دوماً.

الحزن كله لا يكفي لنعيها.

الموت ما زال جالساً في الشرفة وخلف الباب، لم يشبع بعد من التهام أجسادنا ولحمنا المطبوخ.

الخوف ما يزال يقهقه بفم كريح الرائحة، مفتوح على وسعه باتجاه الوطن، وتترجم حركاته طيور الحديد وقاذفات الوقود المنصوبة على جسد القطاع ومن جوف بحره الظالم.

يحملق الخوف في وجوهنا مصحوباً بالموت في كل لحظة، يمنعنا حتى من الحزن، يمنعك من أن تجلس في صمت ترمم قلبك تطبب حزنك، تتناول بعض المهدآت كي تستقيم عافيتك من جديد. الخوف والموت يتأبطان الوقت ويذرعان الشارع غدواً ورواحاً يمنعان القلوب المكلومة بفقد عزيز من ممارسة حقها الأزلي في الحزن.

أفكر بسوداوية أظنني أحملها في جيناتي الغَزيَّة من جهة والدي، أفكر بالأسماء والأشخاص والأعداد التي يرتسم قدرها لتموت غداً أو أثناء الليل والتي يمكن أن أكون أنا من بينها.

السؤال:

متى يشبع الموت؟

(اليوم الثاني والعشرون للعدوان)

السبت 17 من كانون الثاني يناير– 2009

الساعة السابعة والنصف صباحاً.

طوال السنة الماضية وأنا أسمع همس خجول، وأحيانا غياب بعض البنات المفاجىء عن الدرس، سمعت بعضهن يتبادلن الضحكات المكتومة مع بداية العام عندما استلمنا الكتب الدراسية الجديدة، عندما بدأت الأيدي الصغيرة بتقليب كتاب الصحة العامة على وجه الخصوص وعلى الدرس العاشر، حيث تناول المنهاج موضوعات صحية عديدة منها مرحلة البلوغ المتوقع أن يصلها أطفال الأمس، وتحدث الوحدة العاشرة عن المراهقة والتغيرات المصاحبة لها، عن النضج والبلوغ، عن الآثار المترتبة على النفس والجسد لكلا الجنسين.

لم يثر الموضوع انتباهي، ونقلت لأمي تصرفات البنات التي اعتبرتها غير لائقة، ومنذ ذلك التاريخ لم تنفك أمي عن إرسال الإشارات لي عن هذا الموضوع، عن التغيرات الجسدية والهرمونية وربما العاطفية التي تحدث على جسد الطفولة، وان هذا الأمر حدث معها ومع نساء الأرض كلها، وأرشدتني الى مجموعة من الخطوات التي يجب أن أخذها بجدية فيما يتعلق

بالنظافة الشخصية والتغيرات النفسية والعاطفية وما يصاحبها من آلام جسدية ربما.

بقيت طوال الأشهر الماضية اتابع جسدي رغم محاولاتي الشعورية لصرف فكري عنها ، لكنها فطرة البشر.

كانت المرحومة أمي تدرك ربما بحدسها أنها لن تكون الى جواري في صبيحة هذا اليوم عندما داهمتني الطبيعة وأدمت طفولتي بدم الأنوثة التي أطلقت أولى براعمها في الوقت غير المناسب.

لا أستطيع التحدث مع إبي في هذا الشأن، ولا أدري ما يتوجب علي عمله، فالفرق بين النظرية والتطبيق مذهل كالفرق بين الكلام والفعل.

السؤال:

للمرة الألف، لماذا تموت الأمهات؟

<u>الساعة التاسعة صباحاً..</u>

129 طفلاً ومراهقاً استشهدوا حتى هذا الصباح.

لا ننام حتى تنام قلوبنا من شدة نعاسها، لا نفعل شيئاً سوى التحديق بعيوننا كلها في شاشة التلفاز، ونصحوا في

الصباح على منبه من نوع آخر، منبه يصم الآذان ويمنع الأحلام من الحياة على سطح الذاكرة الحية.

في البيت يسود الصمت المطبق، ويكاد هو اللغة الوحيدة التي نتبادل مفرداتها فيما بيننا، ما خلا بعض الكلمات الموجزة حاولت عمتي "نورة" أن تحرّك الماء العكر المترسب في عيوننا، حاولت أن تنبش عن ذكرى، أن تنادي على أرواحنا علّها تستفيق.

في الواقع تملّكنا جميعاً في اليوم التالي لغياب أمي المفاجىء والمفزع إحساس كثيف وبغيض أن الوقت لم يعد مناسباً للحزن عليها، وانَّ الحياة ستستمر، أو على الأقل يجب تأجيل هذا الحزن لبعض الوقت، حتى يحين الوقت المناسب لذلك، أسخر من نفسي لهذه الكلمات، إذ كيف يمكن للحزن أن يتأجل، أنا أفهم أن الفرح يمكن تأجيله أما الحزن؟؟

السؤال:

متى يأتي الغد؟

<u>الساعة العاشرة والنصف صباحاً.</u>

على غير عادته في الأيام التي تلت رحيل أمي، نهض والدي باكراً وشرب قهوته، أحرق بعض اللفائف مولياً ظهره

للبحر، حلق ذقنه، شذب شاربه السميك في مرأتها الصغيرة وهذه المرة في مواجهة البحر، أخذ حماماً ساخناً، لبس ثيابه المعتادة وارتدى قفطاناً كاكياً كان يحتفظ به في خزانة ملابسه دون أن يستعمله، وجلس باتجاه الشاشة الصغيرة، كمن ينتظر أزوف موعد ما.

كنت أرقبه بطرف عيني في دهشه، كيف تعافى عاجلا من مظاهر الحزن التي تلت فقدان "الإسكندرانية" الحبيبة أمي، بل بدأت أشعر اتجاهه بمشاعر غامضة، أو يبدو لي في هذا الصباح غير مفهوم البته.

لم نتبادل الكلام الروتيني المعتاد الذي تعودت عليه افواهنا في صباحات العدوان. وتبادلنا الصمت الذي اعتدناه بعد رحيل سيدة البيت.

كان التيار الكهربائي قد عاد منذ الساعات الأولى للفجر بعد أن قضينا الليل بطوله دون كهرباء. قلّب الفضائيات بتوتر، دون أن يستقر على محطة بعينها، كان الجميع يذيع نفس الأخبار ولكن بصياغات مختلفه. يتشدق المحاورون بكلمات كبيرة وهم جلوس بهدأة قلوبهم على مقاعد وثيرة، المبادرة المصرية، قرار مجلس الأمن، القمم العربية، التكتيك الناجح والإستراتيجية الفاشلة، صمود المقاومة، وقود الحرب المصنوع من أطراف وعيون وأجساد وأحلام البشر، ربطات العنق

الفاخرة التي يتمنطق بها المتحدثون تشي بخداعهم، وقف إطلاق النار، المعابر، الأنفاق، السلاح، المساعدات الطبية، وكلمات أخرى كثيرة لا تنتهي.

بعد أن كتبت بعض الكلمات في الصباح غفوت قليلاً الى جوار فراش أبي، ولم يزل فراش "الإسكندرانية" أمي فارغاً منها دون أن يتمكن أحد من إزالته عندما قُرع الجرس، تلاه طبل براحة اليد على جسد الباب، نهض والدي من مجلسه بخفة وقد ذابت تكشيرته، وبدى كمن أَنجَز وعداً أو أُنجِز له وعد.

كان الملتحي بلباس شبه عسكري هذه المرة، يرتدي بنطالاً بدى أكبر من حجمه يتهدل على خاصرته.

كان غبن عمه الذي زارنا من قبل، وأظن أن اسمه حامد تحادثا همساً، كان والدي قد أخرج بعض الأرغفة الباقية من الثلاجه وترك أشعة الشمس المتسللة من النافذة أن تداعب برودة السطح وتذيب ماء قلبها المتجمد.

التهما ثلاثة أرغفة في لقيمات قليلة، في عجل يبتلعان الخبز المغموس بالزيت دون أن يطحناه تماماً كمن يريد أن يَقتل جوعه لا أن يستمتع بطعامه.

كانت لهما نفس حركات اليدين، فتحة الفم لون العينين، امتلاء الشفتين، وتمكنت وللمرة الأولى أن ألحظ الشَّبه المذهل

بين الرجلين، تخيَّلت كعادتي والدي بلحية سوداء كالتي نبتت للرجل، كانا سيبدوان توأمين، وتخيلت الرجل ذا اللحّية السوداء غير المشذبة وقد صفف شعره وحلق ذقنه، كان سيبدو نسخة لوالدي عندما كان والدي في مثل عمره. كان الشَّبه بينهما يصل الى درجة التطابق.

شربا الشاي الساخن برفقة سيجارتين أشعلهما والدي معاً في فمه بمهارة، مدَّ الرجل يده وتناول سيجارته وامتصها بتلذذ، وامتص والدي سيجارته بسرعة أكبر.

عند الباب شاهدت والدي يحشو أسفل معطفه الكاكي الطويل، سلاحاً التقطه من يد الرجل قبل أن يبتلعهما الفضاء.

تعمد عدم النظر في وجهي واكتفى بالإشارة ملوحاً خشية من أن تلتقي عيناه بضعفي وانكساري، فينقلب على عقبيه ويرجع الى البيت دون أن يذهب برفقة الرجل المتمنطق ببندقية، حاولت أن أقول شيئاً، أن اسأل، لكن جفاف وجه الرجل ذي اللحية السوداء وعجلة أبي، أذابتا الأسئلة المتراكمة في رأسي عن حدث أشاهده، ويخص الرجل الوحيد الباقي في حياتي دون أن أتمكن من السؤال أو الاستفسار.

موت والدتي ترك أثراً غائراً في نفسه، لن تمحوه كثرة الأيام، فأنا أعرفه جيداً وأعرف العلاقة العجيبة المعقدة الحميمة والمتشابكة التي كانت تربطه بـــ"الإسكندرانية"، لم يبكي على فقدها وقد اعتدت عليه يبكِ لمواقف أقل صدماً وربما لمشهد يتثير عاطفته يشاهده في مسلسل أو مقطع إخباري، ولم ينفعل فيلقي ببقايا زجاج البيت من النافذة، لم يصرخ فيخرج كتلة الدم المتخثرة في صدره من أثر الفاجعة الدموية التي أصابت الأسرة واصابت قلبه على وجه الخصوص، بقي لأيام ثلاثة صامتاً صابراً دون أن يفلح قريب أو بعيد ممن حضروا وهم بالمناسبة قلّة، بسبب الوضع القائم، لم يستطع أحد إخراجه من حالته، وامتنع عن التدخين طوال الأيام الثلاثة التي تلت تلقيه النبأ.

وصل حزنه حد الرعب، وحيداً أكثر من البحر، منعزلاً أكثر من راهب في صومعته.

لو كانت أمي لقيت ربها في الأيام العادية لذهب عقله قبلها الى القبر. لكن المصائب عندما تعم، يخفف وقعها وقع بعض.

لكن ذلك لن يخفف من النتيجة وهي في كلا الحالتين واحدة، لقد فقدها الى الأبد، وفقد معها حبه الذي عاند الدنيا لأجله.

هو لا يقول شيئاً، لا يُصرّح لا يصرخ فيفرغ بعضاً مما يعتمل في قلبه.

لقد تكشفت الأسرار التي كابد في إخفائها بالأمس من خلال أحاديثة عبر الهاتف الخليوي بصوت متواطيء مع صمت البحر وتضاد مع أصوات القنابل.

كان دمعه الذي لم يذرفه على الحبيبة يتراكم بداخله يتشكل، يتحوّر، يأخذ أشكالاً كثيرة لأعمال وأحداث يشاركه فيها الله وحده في علمه الواسع.

ها هو يغادر دون أن يقول شيئاً.

في دخيلة نفسي، كنت أتمنى هذه الخلوة، تملكني إحساس بالخدر اللذيذ، بعد أن برئت من دمي الذي سيرافقني كما قالت المرحومة أمي لثلاثين سنة قادمة على الأقل.

الحمام الساخن أعاد لي بعض الحيوية، سَرّحت شعري، قلمت أظافري ولبست ثياباً نظيفة وحزينة.

هي المّرة الأولى التي أغتسل فيها بعد فقدان أمي، عنايتها بالتفاصيل ستبقى مصدر إعجابي وقدوتي، لكنها اليوم ليست إلى جواري لتقول لي ما يتوجب علي فعله، لتفرح بأنوثتي التي تفتحت، والتي ما فتأت تحدثني عنها طوال السنة الماضية.

السؤال:

هل أطمأنت طيور الحديد بعد أن أودعت أمّي في القبر، هل ستهدأ عن إصدار صوتها ورائحتها الكريهة؟ وكم تحتاج من أجساد الأمهات والأطفال كي تطفيء عطشها من دم الأبرياء؟

الساعة الواحدة ظهراً ..

تلقيت هذه المشاركة على بريدي الألكتروني من صديقتي "ياسمين" من مصر تقول فيها..

شق طائر أسمه "الفينيق" من الجنة باتجاه الأرض بعد أن قضى هناك قرابة ألف عام بكل ما يحمله من حكمة وصبر ليرى حياة البشر وحالهم، آمالهم وأحلامهم، أفراحهم وأحزانهم، ظلمهم وعدلهم المنقوص، ويرى فلسطين الجريحة منذ ذاك الزمان، ليطبب جرحها القديم.

جال الطائر البحار والسهول والجبال والتلال وخضرة الأرض وجفافها، شاهد فاكهتها وخضرتها وربما أشجارها سروها ورمانها، زيتونها وعنبها، الى أن استوقفته رائحة اللّبان والبخور المنبعثة من جبال فلسطين، (أرجو المعذره يا "عيوش" عن هذا التحوير، فالأساطير يمكن تحويرها كيفما نشاء، وهي تبدو الى جانب أسطورة غزَّة كأنما سُطرت بحبر واحد)، بنى ذلك الطائر عشه على شجرة زيتون أو شجرة نخيل مثمرة. يطل بها من بعيد على بحر غزَّة الظالم –كما وصفته لي في رسالتك السابقة–.

في صباح من صباحات الوطن نسي البحر أن يستيقض من نومته الليلية، الشمس في ذلك الصباح استيقظت أبكر قليلاً

من عادتها، وعندما شاهدت البحر يغط في نومه، في ملابس النوم الفاضحة أشرقت في موعدها كالعادة دون أن توقظه ليبدل ملابس نومه أو يغسل أحلام الليل ويداري عريه.

كان مشهد الشروق جميلاً الى درجة الإغراء.

فبدأ الطائر الأبدي ينشد أغانيه السماوية بصوت عذب شجي، وعندما سمعه إله الشمس خرج على عربته التي تجرها أربعة أحصنة نارية، ليقدم له الشكر ويظهر له أعجابه، عندها تجرأ الطائر السماوي وطلب من إله الشمس أن يريه صورة حية عن حياة الأرض.

ولكن سرعان ما بدأ الطائر بالبكاء، يعتصره الألم لما شاهده وأحس به من ظلم وعذاب بين أهل الأرض من ظلم شعوبها فيما بينهم، بدأ بضرب جناحيه داخل عشه فجفلت الأحصنة النارية وضربت حوافرها الأرض بقوة، فطارت شرارات نارية الى العش فحرقت طائر "الفينق" بعشه.

احترق الطائر بعشه باختياره، وقد اختار مشاركة البشر أحزانهم وأفراحهم، هزائمهم وانتصاراتهم، حتى أصبح رماداً

لكن يا "عيوش" لم تكن تلك النهاية.

لقد ظهرت بيضة من تحت الرماد في صبيحة اليوم التالي لموته وهذه اسطورة "الفينق" حيث من السائد أن "الفينيق" يموت ويولد كالشمس، التي تموت في نهاية كل يوم وتعود في اليوم

التالي لتولد من جديد، فمنذ بدء الخليقة، كانت الكائنات تولد من أخرى، إلا كائناً واحداً يولد من ذاته، هو طائر الفينق كما سمّاه "الآشوريون" ويعيش على الزهور والعطور والعنبر، يعيش ألف سنه، وعندما يحين أجله يبني عشاً في أعلى الشجرة، يجمع العنبر والطيب والمُرّ واللّبان، يتكوم بينها ويلفظ آخر أنفاسه بين الأطياب. من رماد الطائر الأب، يولد فينق صغير يعيش كأسلافه ألف عام.

حبيبتي "عيوش" هذا ما حدث، يموت الفينق ويبعث حياً من رماده .

"عيوش"

يحلق طائر الفينق هذه الأيام العصيبة فوق غزَّة، وغزَّة حالها كطائر "الفينق" تماماً، ستحيا وستنهض من بين الرماد، كتلة نار ملتهبة في وجه المحتلين والطغاة، تنبعث من جديد بإرادتها الحرة ورغبتها المشروعة في العيش بسلام وكرامة، كباقي سكان الأرض.

أتمنى لك السلامة وأن يطرد الأيمان كل مظاهر اليأس والخوف من نفسك ونفوس أهل فلسطين الأبطال.

السؤال:

كم تحتاج فلسطين من دم أبنائها كي تبرأ من نار الغزاة؟

الساعة تمام الثانية عشرة ظهراً

بعد أقل من ساعتين، عاد والدي برفقة ابن عمه حامد، دخل هو وبقي حامد ينتظره في فم الباب دون أن يقفله. دخل غرفة نومه وأخذ كيس أسود كبير لم أتبين ما يحوي دون أن ينبس بكلمة واحدة، فزاد من حيرتي وخوفي.

كان يتصرف كمن فقد كل شيء وعاد له كل شيء فجأة.

جال ببصره بنظرة تقطر حباً وحناناً على أشياء البيت، على صورة أمي في قلب الصالة، وأخيراً على وجهي، أشار بيده وأغلق الباب بحزم.

أحس برغبة كبيرة في الكتابة، فربما أستطيع التحرر ولو قليلاً من الخوف والحزن الذي لا أجد من أشاركه فيه، أحياناً تحتاج لتشارك أحد ما حزنك، فقدانك، خوفك من المجهول. لكن بالنسبة لي، لا أحد سوى هذا الدفتر العزيز، هذا القلم وبعض الكلمات.

سأعود بعد أن أعدّ كوباً ساخناً من القرفة، لا تذهب بعيداً أيها القلم وأنت أيتها الكلمات انتظريني ....

السؤال:

(اليوم الثالث والعشرون للعدوان)

الأحد 18 من كانون الثاني يناير– 2009

الساعة ....

(الفصل الثالث)

وقفات ...

الوقفة الأولى:

من طول انتظار "عيوش" وعدم ثقتها بكل ما يقال ويسمع ممن يتاجرون بالدم، ويعتاشون كالطفيليّات على حلاوة دم الجراح. لم تتمكن من كتابة شيء في اليوم التي اطفأت فيه "طيور الحديد" محركاتها وأعلن عن انتهاء الحرب من طرف واحد.

كانت تسابق الأيام وتكتب في دفترها المدرسي أسماء الأيام وأرقام الأشهر وتضاريس الساعات والأسئلة التي بقيت معلّقة في رأسها وقلبها، دون أن تتمكن من كتابة يوميات الهدوء لسبب سنعرفه جميعاً بعد قليل.

الوقفة الثانية:

شهود العيان، وجيران الشهيدة المتواجدون في حيِّ " تل الهوى" أفادوا أن مروحية أطلقت صاروخاً واحداً من السماء باتجاه الشقة في الطابق الخامس من الشرفة المطلة باتجاه البحر، عقب مغادرة والدها "أبو العبد"_"أبو عائشه"، "أبو عيوش"_

برفقة رجل مسلح ذو لحية سوداء؛ يرتدي بنطالاً مرقطاً مثل العسكر.

الوقفة الثالثة:

" لقد عثر على هذه الأوراق في غرفة الشهيدة (عيوش) "عائشة" كما ورد اسمها في هذه الأوراق، وكما كان يحلو لها أن تُنادى.

الوقفة الرابعة:

لقد حرصت على نشر هذه المذكرات كما هي، دون صياغة أو تشذيب، كي تبقى رائحة الدم والبارود تسكن ثنيات أحرفها. وذلك تكريماً لها ولكافة الشهداء ولمن عاش لحظات الحرب، برعبها وقسوتها وطولها.

أنشرها دون إذنها، مع اعتذاري الشديد لها عن اقتحام خصوصيتها، أنشرها كي يقرأها المارة في صبيحة اليوم التالي لسؤالها عن الأفعال التي اقترفتها في القليل من أيام الدُّنيا، كي يشاركوها الأسئلة التي طافت ظلمة ليلها، وربما في الإجابة عن بعض هذه الأسئلة التي بقيت عالقة في سماء عقلها وقلبها.

الوقفة الخامسة:

عندما كُشفَ عن وجهها لتشخيص حالتها، كانت غير ميتة، لا أثر لجرح، أو طعنة سيف، أو أثر سكين.

سبب الوفاة تفجر أوعية وشرايين الدماغ من أثر القنبلة الفراغية التي ابتلعتها الشرفة مشرعة الباب والروح المقابلة للبحر تماماً.

كانت صفحة وجهها الصافية لا تشي بالموت، وتشي بدهشة السؤال.

البندقتان الصافيتان أبداً في وجهها، شابهما فقط قليل من الحيرة والخوف، ربما على آخر مشهد ارتسم فيهما قبل أن ينطفئ النور. واستطاعت بهما "عيوش" أن تحملق في الشمس على غير العادة دون أن تخشى الإصابة بالعمى.

وهي التي تمنت منذ صغرها التحديق مباشرة في قرص الشمس، ربما لتقرأ ما يجول في خاطرها منذ القِدَم، لتحصي العدد الحقيقي لعشاقها وشهدائها منذ بدأ الخلق. ها هو الموت قبل أن تعود الى بطن أمها الأرض، يحقق لها أمنيتها هذه دون أن تصاب بالعمى، بعد أن شاهدت اليوم بعين قلبها الحقيقة الأهم في عمرها الصغير كله.

الوقفة السادسة:

بعد إحصاء الأسئلة التي كتبتها "عيوش" بمداد دمها وخط يدها الثابتة والمرتبكة في نفس الوقت؛ رهبة وخشية من الموت الواقف _ كما تقول في دفترها_ خلف باب البيت، المطل برأسه الأسود من وراء زجاج النافذة. وجدتها صدفة أو عمداً تحاكي في عددها أعوام النكبة، ولو قُدّر لـــ"عيوش" أن تحيا بيننا لزادت عليها في كل سنة سؤالاً كبيراً وفي كل يوم وساعة أسئلة صغيرة من تفاصيل حياتها وحياة الكائنات البشرية التي تحمل حب الحياة في قلبها والخوف من ضياع حلمها بفلسطين، أسئلة تتكاثر كالسرطان في جسد الأرض وتحت سماء الله الواحد، دون أن تجد لها جواباً شافياً.

الاحتمال الآخر، _ هذا لو قُدِّر لـــ"عيوش" أن تكبر وتنضج أنوثتها_ أن تتخلى عن أسئلتها الوجودية البريئة المشروعة لصالح اهتمامات يومية أخرى، كالعناية بزوج كريه رائحة الفم، تربية الأولاد، الإعتناء بالورد أو البحث عن القطط الضالة لتعذيبها.

الوقفة السابعة:

إعلان عن مسابقة دولية؛ تكريماً لروح عيوش التي عاشت خوف الحياة وأمنت خوف ما بعد الموت.

من يستطيع الإجابة عن هذه الأسئلة كاملة أن يرسل الإجابات على شكل ملف الكتروني بصيغة "PDF" الى البريد الإلكتروني للأمة "بلاد العرب أوطاني".

الوقفة الثامنة:

توزع الجوائز العشر كالتالي.

الجــائزة الأولى: "جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمؤمنين".

الجــائزة الثانية: "المجد لله في الأعالي وفي الناس المسّرة وعلى الأرض السلام"

الجــائزة الثالثة: الحرية غير منقوصة.

الجائزة الرابعة: الموت وقوفاً كالأشجار.

الجائزة الخامسة: حياة تسر الصديق، أو ممات يكيد العدا.

الجائزة السادسة: المشاركة في حفل تنصيب الرئيس الأمريكي القادم.

الجائزة السابعة : رحله الى سطح الزهرة لمشاهدة ظلم البشر.

الجائزة الثامنة : رحلة حول العالم للتأكد من أن شعب فلسطين هو آخر شعوب الأرض التي ما تزال ترزح تحت الإحتلال.

الجائزة التاسعة بعد المليار السابع لعدد سكان الأرض: "معلومة هامة " الفلسطينيون بشر يشبهونكم، لهم أربعة أعضاء، (يدان وقدمان) فم واحد وأذنان اثنتان. وفي شرايينهم دم كدمكم لونه

أحمر، في قلوبهم محبة لكم جميعاً، لكن وجعهم يمنعهم أحيانا من الكلام.

<u>الجائزة الأخيرة:</u> لأخر مخلوق يجلس الآن على كرس هَزَّاز فوق المريخ أو على سطح الزهرة، يُلوِّح لنا بالحضارة: "شكراً لكم"

الوقفة التاسعة:

نقل "باولو كويلهو" عن قرية ضائعة في إسبانيا كُتِب على واجهة إحدى محلاتها الصغيرة العبارة التالية.

"في اللحظة التي وجدتُ فيها كلّ الأجوبة، تغيّرت كل الأسئلة."

الوقفة الأخيرة:

"الفناء نهاية أكيدة، لكنه بالمطلق، نهايه محتملة".

للتواصل مع المؤلف
isawisami@gmail.com

الغلاف من تصميم الفنان الفلسطيني حافظ عمر